

باتريك موديانو

سيرُكَ يَمرّ



رواية

7.5.2017

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

باتريك موديانو

سيرُكَ يمرّ

رواية

ترجمتها عن الفرنسيّة

دانيال صالح

مراجعة

كاظم جهاد

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2673.O3 C5712 2016
Modiano, Patrick, 1945-
[Un cirque passe]
سيرْك يَمرّ: رواية / تأليف باتريك موديانو ؛ ترجمة دانيال صالح ؛ مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.
217 ص. ؛ 11 × 18 سم.
ترجمة كتاب: Un cirque passe
تدمك: 1-665-13-9948-978
1- القصص الفرنسية- القرن 20.
أ- صالح، دانيال. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Patrick Modiano
Un cirque passe

لوحة الغلاف: «استعراض السّيرك» لجورج سورا، 1888
Georges Seurat, La Parade de Cirque,1888



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

سيرْكُ يَمرْ

ديباجة

إلى العمل الروائيّ للكاتب الفرنسيّ باتريك موديانو Patrick Modiano، الفائز بجائزة نوبل للآداب في 2014، والذي نقدّم في هذه السلسلة ترجمة لستّ من رواياته أنجزتها دانيال صالح، تشكّل الرواية الماثلة ههنا بين أيدي القارئ إضافة ثمينة. صدرت الرواية في 1992. شخصيّتها المحوريّة فتىً في الثامنة عشرة من عمره، تستجوبه الشرطة لسبب غير معلوم، وهو من يضطلع بالسّرد.

تساعدنا المعطيات الزمنية في الرّواية على تحديد الفترة التي يتموقع فيها زمن الأحداث. فعندما يستعيد السّارد الأحداث الرئيسيّة بعد عشر سنوات من وقوعها، يذكر أنّه يقوم بذلك في العام 1973، ما يعني أنّها وقعت في 1963. فهي إذَن تتلو استقلال الجزائر (5 يوليو 1962) بشهور، أو

قد تكون سبقته بقليل إذا ما اعتبرنا تواريخ السّرد تقريبيّة.
شهدت حرب الجزائر في سنواتها الأخيرة تعاون بعض الفرنسيّين مع عناصر المقاومة الجزائرية، وأُطلِقت على أنصار الثورة الجزائريّة من بين الفرنسيّين تسمية «حاملي الحقائب». يرى بعض النقّاد في كون السّارد يتكفّل بحمل حقيبة ثقيلة لمساعدة الفتاة التي تشاركه «بطولة» الرواية غمزة في هذا الاتّجاه. ولكنّ الفترة ذاتها شهدت أيضاً عمليّات اغتيال وقع ضحيّتها عدد من المقاومين وأنصارهم، كما تمخّض استقلال الجزائر عن صراعٍ ضارٍ بين الفرنسيّين مناصري الاستقلال وأشقّائهم المتعصّبين لاستعمار البلاد، ما كانوا يدعونه «الجزائر الفرنسيّة». هذه الاضطرابات الأخيرة وما رافقها من عملياتِ اختطافٍ وتعذيبٍ وقتلٍ تلقي بأثرها الحادّ على أجواء هذا العمل.

في هذا السياق يلتقي السّارد بفتاةٍ خضعت للاستجواب بعده في مخفر الشرطة ذاته. انتظر خروجها منه ليتعرّف عليها. تنشأ بينهما علاقة، وعلى غرار أغلب شخوص أعمال الكاتب تولد لدى الشابّ رغبة في النّفاذ إلى صميميّة امرأة تقوده إلى العالم الأليف أو دنيا الأحياء.

وهنا أيضاً، وعلى نحوٍ نقف فيه كلّ مرّة على تجديدٍ وتنويعٍ وإضافة، تزجّه العلاقة في عالمٍ يحفل بكائنات ملغزة ومناورات خفيّة. فالجميع مدفوعون في صيرورة يلفّها الغموض. وكما في رواية «من أقاصي النسيان» وأعمال أخرى للكاتب، ينتصب مشروع السّفر إلى مدينة أخرى (هي هنا روما) فكرةً آسرة وإمكاناً لتحقيق سعادة تبدو ممنوعة على الشابّين بباريس، وخصوصاً للهرب من ماضٍ أو ذكرى لا ندري ما هو أو ما هي. وكما في أعمال أخرى للروائيّ، يُحبَط المشروع، وهو هنا يتلاشى قبل أن يبدأ، وذلك بباعثٍ من اختفاء الفتاة.

كالعادة، لا نعلم على وجه اليقين ما يحدو هذه الفتاة إلى الهرب والتخفّي في بحر الحشود المتلاطم بباريس: «لا أحد يمكنه أن يعثر على أثرنا وسط هذا الحشد»، تقول للسّارد لدى ركوبهما القطارَ الجوفيّ.

تنحصر الأحداث في بضعة أيّام، يصفها الكاتب في فصول وجيزة تتوالى بلا أرقام ولا عناوين. زمن السّرد يوقفنا على التجربة بعد وقوعها بعشر سنوات كما أسلفنا، وهو ما يسمح للسّارد، أي للكاتب، بإيقافنا على فنّه

العجيب في معالجة أدنى التفاصيل والنظر إليها بعين الذكرى، دافعاً إيّانا إلى لعبة التساؤل الممضّ مثله، قاذفاً بنا في قلب التجربة. حتّى إذا أدركنا الخاتمة، وتيقَّن «البطل» السّارد من انهيار مشروعه في السفر بصحبة الفتاة، لا بل من انتفاء إمكان ملاقاتها من جديد، يعود له يقين الخسارة بنوع من الصفاء المفارق والتحرّر الدّاخليّ.

يستعيد الكاتب اللّقاءات والمحاورات والتّجوالات، ساكباً عليها غضارة الفتوّة، ومحافظاً للأجواء والعلاقات على حصّتها من اللّغز، أو على هالة السرّ التي تبقى هي محاطةً بها. فالشخوص تتقدّم هنا بأسماء وهميّة أو مستعارة، والأعمال الحقيقيّة للشّخصين المريبين اللّذين يلقيان بأثرهما الكبير على الأحداث، بيار أنسار وجاك دو بافير أو جاك البافياريّ، لا نعلم ما هي ولا البواعث التي دفعتهما إلى اختطاف رجلٍ، باستعمالهما الساردَ والفتاةَ للوصول إليه، في صفقة ينقاد إليها السّارد عن غشامة، وصديقته عن نفعيّة وخفّة على الأرجح. هو تخبّط وضياع وتلمّس لبصيص نورٍ يُستشَفّ استشفافاً فحسب، وهذا البصيص ذاته لا يأتي إلّا بعد اختفاء الشهود وأبطال

الحدث الأساسيّين.

زمن الذكرى مزدوج، استعادة للتجربة المخصوصة هذه، ولطفولة الكاتب تنبثق ذكرياتها إلى السطح بتحفيز من الأماكن التي يجتازها وحيداً أو بمعيّة الفتاة. وبفضل المسافة الزمنيّة، يخامر السّاردَ الاعتقادُ بفهم ما جرى: «كانت تبتسم لي. ربّما لاحظتْ أنّني كنت أسخر منها برفق. الحقيبتان، المعطف الفرو، الكلب... اليوم أفهم بشكلٍ أفضلَ تلك التنقّلات ذهاباً وإياباً، سعياً لجمع أجزاء حياة مشتّتة». هكذا تتراكم الأسئلة والتآويل، وإذ يعود السّارد بعد عشر سنوات إلى زيارة مقهىً كانت فتاته ترتاده في زمن الأحداث، لا يحصل على إجابة شافيةٍ ولا على بعض إيضاح حقيقيّ.

وكما هو مألوف في أعمال الكاتب، تبرز هنا أهميّة الحبّ، وما يمنحه من ثقة وامتلاء. يعيش السّارد زمن الحبّ هذا في حالةٍ وسطٍ بين الحلم واليقظة، ويُلفي نفسه والفتاةَ منفصلَين عن العالم طالما كانا معاً: «اعتباراً من ذلك المساء، صرنا منفصلين عن كلّ شيء. لم يعد أيّ ممّا يحيط بنا حقيقيّاً. لا غرابْلي، ولا والدي التائه في سويسرا،

ولا والدتي القابعة في مكان ما بجنوب إسبانيا، ولا الناس الذين صادفتهم من غير أن أعرف عنهم شيئاً: أنسار، وجاك دو بافيير... صالة المطعم أيضاً كانت مجرّدة من أيّ واقع، وكأنّها واحد من تلك الأماكن التي ألفناها في ما مضى، ونستعيدها في أحلامنا». سوى أنّ واقعه الحلميّ هذا مفعم بالخشية من اختفاء الفتاة. ففي الصفحة ذاتها نقرأ: «تمدّد الكلب عند قدميّ. داعبته لأتثبّت حقّاً من وجوده. كنت جالساً قبالتها. ولم تكن عيناي تفارقان عينيها. لامست وجهها بيدي. تملّكني من جديدٍ الخوف من أن تختفي».

ولم يفُت النقّاد أن يلاحظوا، هنا أيضاً، حضوراً معبَّراً عنه بلغة التخييل لبعض ملامح سيرة موديانو وأبويه. فالسّارد، شأنه شأن موديانو الصبيّ المصوَّر في سيَر الكاتب الروائيّة، منسيّ هو أيضاً. تَذَكُّره مهجع المدرسة يحيل على طفولة الكاتب نفسه. هي معضلة الفتى المتروك إلى نفسه، تتجلّى إحدى الإشارات إليها في إهداء المؤلّف هذه الرواية إلى والديه.

الأب أيضاً، وكالعادة، يبرز هنا عبر غيابه، ونحن لا

نعرف ما تحتويه وثائقه وملفّاته التي يكلّف صديقاً له بإحراقها بدلاً عنه. والصديق هذا نفسه، المسّمى غرابْلي، ينتصب كمثْلِ صورة للأب أو نسخة عنه: فهو مستلَب في هيامه براقصة عرْي، لا يعرب لا عن إرادة حاسمة ولا عن ذوق رفيع. بالمقابل، يلفت أنظارنا بائع التّحف القديمة الإيطاليّ ديلّافيرسانو، الذي يجهد في مساعدة السّارد وصديقته في السفر إلى روما والحصول على عمل فيها. فهو يمكن أن يشكّل، بما يميّزه من حبّ للمساعدة، صورة للأب المثاليّ الذي كان السّارد وعموم «أبطال» روايات موديانو بأمسّ الحاجة إليه.

وبالإضافة إلى هذا الحضور الشبحيّ لوالد السّارد، ولوالد الكاتب نفسه عبر ما نعرفه عنه في روايات الابن، نلمح حضوراً طيفيّاً لبعض أشخاص فترة الحرب السلبيّين. من هؤلاء الكاتب الفرنسيّ موريس زاكس Maurice Zachs، الذي تعاون مع المحتلّين الألمان ثمّ لقي مصرعه على يدِ واحدٍ منهم. وهو يحضر هنا بخفاءٍ أو تلميحاً عبر كتابه «الصّيد بالكلاب السلوقية» *La Chasse à courre*، الكتاب الوحيد الذي يصرّ أبو السّارد على حمله

معه لدى هروبه إلى سويسرا.

حتّى السّيرْك الحاضر في عنوان الرواية يتجلّى أخيراً باعتباره محض دعابة سوداء من لدن الروائيّ. فنحن لا نقابل السيرْك إلّا في جملة أو اثنتين، في إشارة إلى المهنة التي كان يزاولها الزوج السابق للفتاة. فكأنّ السّيرْك ينتصب هنا استعارةً تومئ إلى ما تصوّره الرواية بكاملها: سيرْك يمرّ، مهرجان عابر، سراب تجاربَ وأنقاض أحداث. تجوالٌ محض. إنّ اسم السّيرك وحده لَيوحي بانعدام الثبات وبالتّطواف الذي يميّز عالم موديانو بأكمله.

هي في المحصّلة الأخيرة رواية ذواتٍ منجرفة في تيّار، على نحوٍ ينهض فيه وصف السّارد لتَدافُع المسافرين في محطّة القطار الجوفيّ مجازاً آخر للتّعبير عنه: «كانت ساعة الزحمة. وقفنا محشورَين قرب البوّابات. وعند كلّ محطّة، كان الركّاب الذين ينزلون يدفعوننا على الرصيف، ثمّ نعود ونصعد في الحافلة مع الركّاب الجدد». فلا نرى هنا إلّا كائنات مسوقة تحرّكها نوابض خفيّة، وشخوصاً سابحين في ضبابية تاريخيّة ممعنة في الكثافة، وهذا كلّه يجهد في إضاءته، لنا ولنفسه، ساردٌ يعاند في تثبيت الذكريات

واستنطاق العلامات. وهنا تتأكّد أهمّية الحوار الداخليّ، الذي يفجّر أسئلة يمكن أن تعتمل في ذهن القارئ أيضاً.

يظل للشرطة حضور واضح في هذا العمل، على أنّ أغلب روايات موديانو تحمل في الحقيقة، في بنائها وإجراءاتها، شبَهاً بالرواية البوليسية. شبَه يتجلّى عبر غلبة عوالم اللّيل والولع الطاغي بالاستقصاء، وعبر حضور الشرطة ورجال التحرّي والمحقّقين الخاصّين، يشتبهون بالسّارد الغشيم، كما في هذا الكتاب، أو يحاول بعضهم مساعدته في بحثه عن هذا الوجه من وجوه ماضيه أو ذاك، كما في «شارع الحوانيت المظلمة» و«عشب اللّيالي». سوى أنّه سرعان ما يحْرف مسار البحث البوليسيّ صوب مسعىً وجوديّ ورحلة شجاعة في أنقاض الذاكرة، بحثاً عن وجهٍ أو نظرة أو عبارة علقت في الذاكرة ويقبض السّارد على دلالتها الصحيحة بعد فوات الأوان، إذْ هو لم يدركها في اللّحظة المناسبة.

وأخيراً، قد لا تهمّ هنا لا نوعيّة الأحداث ولا طبيعة الشخوص، بل الأجواء المنغمسون هم فيها، ذلك التشوّش الكبير الذي يشكّل مجرّد النجاح في الإيحاء به

دون إماطة اللّثام عنه أحد مصادر قوّة الرواية وشاهداً على براعة كاتبها. ومرّة أخرى، قد يكون أفضل تلخيص لهذا المسعى ما صرّح به الكاتب نفسه للصحافة الأدبيّة عن هذه الرّواية: «كان أغلبنا يومذاك في سنّ العشرين أو الحادية والعشرين. وقد ظللنا طيلة فترة معيّنة نشعر بأنّنا نعيش عبر ضربٍ من التّدليس، وكنّا مجبرين على مخالطة أناسٍ أكبر منّا سنّاً. فكنّا نجازف بالوقوع في لقاءات سيّئة».

هذه في النهاية رواية لقاءٍ سيّئ، بالمعنى القويّ للصّيغة، الذي لطالما توقّف عنده الفيلسوف جيل دولوز Gilles Deleuze: لقاء فيه غواية فاسدة، واغتيال للبراءة، وتلاعُب بالنّفوس. يظلّ في الختام هذا الحنين إلى شيء غامض، إلى ألفة منشودة ونهائيّة هي الغائب الكبير في زمن التجربة هذا كلّه.

المُراجِع

كاظم جهاد

إلى والديّ

كنت في الثامنة عشرة من عمري، وكان ذلك الرجل الذي نسيت ملامح وجهه يطبع أجوبتي تباعاً على الآلة الكاتبة فيما أنا أفصح له عن وضع أحوالي المدنيّة وعنواني، وعن صفة طالبيّة أدّعيها. سألني كيف كنت أقضي أوقات فراغي. تردّدت بضع ثوانٍ وقلت:

- أذهب إلى السينما والمكتبات.

- لا تقل لي إنّك لا تقصد سوى دور السينما والمكتبات.

ذكر لي اسم مقهى. عبثاً ردّدت على مسمعيه أنّني لم أطأ ذلك المكان يوماً، فكنت أشعر بوضوح أنّه لا يصدّقني. أذعن أخيراً ودقّ على الآلة الكاتبة الجملة التالية: «أقضي ساعات فراغي في السينما والمكتبات. لم أذهب يوماً إلى مقهى لا تورنيل، رقم 61، على الرصيف الذي يحمل

الاسم ذاته».

ثمّ طرح مجدّداً أسئلة عن جدولي الزمنيّ وعن والديّ. أجل، كنت أحضر دروس كليّة الآداب. لم تكن تلك الكذبة تنطوي على أيّ مجازفة بالنسبة لي، لأنّني تسجّلت فعلاً في تلك الكليّة، ولكن فقط من أجل تمديد إعفائي من الخدمة العسكريّة. أمّا والداي، فسافرا إلى الخارج، وكنت أجهل تاريخ عودتهما، هذا في حالِ ما إذا عادا يوماً.

ذكر لي عندها اسم رجل وامرأة وسألني إن كنت أعرفهما. أجبت بالنفي. طلب منّي التفكير مليّاً. لأنّني إن لم أكن أقول الحقيقة، قد أتحمّل عواقب في غاية الخطورة. أصدر ذلك التهديد بنبرة هادئة، غير مبالية. لا، حقّاً، لم أكن أعرف هذين الشخصين. طبع جوابي على الآلة الكاتبة، ثمّ مدّ لي الورقة التي كتب في أسفلها: «تمّت قراءته والموافقة عليه». دون أن أراجع إفادتي، وقّعت بقلم حبر جافّ كان ملقىً على المكتب.

قبل أن أخرج، أردت أن أعرف لماذا أُخضعت لذلك الاستجواب.

- كان اسمك وارداً على مفكّرة أحدهم.

لكنّه لم يقل لي من كان ذلك الشخص.

- سوف نستدعيك في حال احتياجنا إليك من جديد.

رافقني حتّى باب المكتب. في الرواق، كانت فتاة في حوالى الثانية والعشرين جالسة على المقعد الجلديّ.

- دورِكِ الآن، قال للفتاة.

نهضَتْ. تبادلنا نظرة، أنا وهي. رأيتها من شقّ الباب الذي لم يغلقه تماماً، تجلس على الكرسي ذاته حيث كنت جالساً قبل لحظة.

*

ألفيتُني على رصيف النهر. كانت الساعة تقارب الخامسة مساءً. مشيت صوب جسر سان ميشال، وبنيّتي أن أنتظر خروج تلك الفتاة بعد استجوابها. لكنْ لم يكن بوسعي البقاء مسمّراً في مكاني، أمام مدخل مبنى الشرطة. قرّرت أن أرابض في المقهى عند زاوية رصيف النهر وجادّة باليه. وماذا لو سلكَت الطريق المعاكس نحو جسر بون نوف؟ لكنّ ذلك الاحتمال لم يخطر لي البتّة على بال.

كنت جالساً خلف زجاج واجهة المقهى، شاخصاً في مبنى مديرية الشرطة القضائيّة. دام استجوابها وقتاً أطول بكثير من استجوابي. كان الليل هبط حين لمحتها تمشي في اتّجاه المقهى.

عند عبورها أمام واجهة المقهى، طرَقْتُ بظهر يدي على الزجاج. نظرَتْ إليّ بدهشة وانضمّت إليّ في الداخل.

جلسَتْ إلى الطاولة، وكأنّنا نعرف أحدنا الآخر وتواعدنا على أن نلتقي هناك. بادرَتْ بنفسها إلى الكلام.

- هل طرحوا عليكَ الكثير من الأسئلة؟

- كان اسمي مدوّناً على مفكّرة أحدهم.

- وهل تعرف من كان ذلك الشخص؟

- رفضوا أن يقولوا لي ذلك. لكن ربّما يمكنك بنفسك إطلاعي على الأمر.

قطّبَت.

- إطلاعك على ماذا؟

- ظننت أنّ اسمكِ أيضاً كان مدرجاً على تلك المفكّرة وأنّهم استجوبوك في القضيّة ذاتها.

- لا. بالنسبة لي، كانت مجرّد إفادة.

بدت مهمومة. خيّل لي حتّى أنّها راحت تنسى وجودي شيئاً فشيئاً. بقيْتُ صامتاً. ابتسمَت لي. سألتني عن عمري. أجبتها: واحد وعشرون عاماً. كنت زدت عمري ثلاث سنوات: سنّ البلوغ في تلك الفترة.

- هل تعمل؟

- أقوم ببعض أعمال السمسرة في مكتبات، أجبت مرتجلاً، وبصوت جهدت لإعطائه نبرة حازمة.

كانت تتفحّصني، وهي تتساءل ربّما إن كان بمقدورها أن تثق بي.

- هل تسدي لي خدمة؟ سألتْني.

*

في ساحة شاتليه، أرادت الصعود في المترو. كانت ساعة الزحمة. وقفنا محشورَين قرب البوّابات. وعند كلّ محطّة، كان الركّاب الذين ينزلون يدفعوننا على الرصيف، ثمّ نعود ونصعد في الحافلة مع الركّاب الجدد. كانت تسند رأسها إلى كتفي، وقالت لي مبتسمة: «لا أحد يمكنه أن يعثر علينا وسط هذا الحشد».

في محطّة غار دو نور، جرفنا سيل الركاب المتّجه إلى قطارات الضواحي. عبرنا ردهة المحطّة، وفي مستودع الأمانات الآليّ، فتحَتْ خزانة وأخرجت منها حقيبة جلديّة سوداء.

كنت أحمل الحقيبة التي كان وزنها ثقيلاً. قلت لنفسي إنّ ما تحتوي عليه لم يكن مجرّد ملابس. المترو من جديد، الخطّ ذاته، إنّما في الاتّجاه المعاكس. وهذه المرّة، جلسنا في مقعدين. نزلنا في محطّة سيتيه.

عند طرف جسر بون نوف، انتظرنا الضوء الأحمر. كان يساورني قلق متزايد. تساءلت كيف سيستقبلنا غرابْلي عندما نصل إلى الشقّة. ألا يجدر بي أن أكلّمها قليلاً عن غرابلي، حتّى لا تباغَت بحضوره؟

كنّا نسير بمحاذاة مبنى «لا مونيه»[1]. وسمعت ساعة المعهد[2] تدقّ التاسعة.

---

(1) La Monnaie المؤسسة النقديّة الوطنيّة الفرنسيّة المسؤولة عن إصدار العملة الفرنسيّة. (جميع الحواشي وضعتها المترجمة.)

(2) L'Institut de France «معهد فرنسا» هو معهد أكاديميّ يعود إلى العام 1795، يضم خمس أكاديميّات، من بينها الأكاديميّة الفرنسية وأكاديمية العلوم، يشرف على إدارة جمعيّات ومتاحف ويتولّى تقديم جوائز ومنح.

- هل أنت واثق من أنّني لن أزعج أحداً إن جئت إلى منزلكم؟ سألتني.

- لا، لا أحد.

لم يكن هناك أيّ ضوء خلف نوافذ الشقّة المطلّة على رصيف النهر. هل انسحب غرابلي إلى غرفته من جهة الفناء الداخليّ؟ كان يركن سيّارته بالعادة في وسط الساحة الصغيرة التي تشكّل فجوة بين «لا مونيه» والمعهد، غير أنّها لم تكن هناك.

فتحْتُ باب الطابق الرابع وعبرنا البهو. دخلنا القاعة التي كانت في ما مضى مكتب والدي. كان النور ينبعث من مصباح يتدلّى عارياً من السقف. لم يعد هناك أيّ قطعة أثاث، باستثناء الكنبة القديمة ذات النقوش الحمراء بلون العقيق.

وضعْتُ الحقيبة بجانب الكنبة. ذهبَتْ إلى إحدى النوافذ.

- لديكم منظر رائع...

إلى اليسار، طرف جسر بون ديزار وقصر اللوفر. وفي

المقابل، رأس جزيرة لا سيتيه وحديقة فير غالان[1].

جلسنا على الكنبة. كانت تجول بنظرها حولها، وبدت عليها الدهشة لرؤية الغرفة فارغة.

- هل أنّكم تنتقلون إلى شقّة أخرى؟

شرحت لها أنّ علينا للأسف أن نغادر المكان في غضون شهر. وأنّ والدي غادر إلى سويسرا لينهي حياته هناك.

- لماذا سويسرا؟

كان شرح ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً جدّاً في ذلك المساء. هززت كتفيّ. غرابلي سوف يعود بين لحظة وأخرى. ما سيكون ردّ فعله حين يرى تلك الفتاة وحقيبتها؟ كنت أخشى أن يتّصل بوالدي في سويسرا، وأن يصرّ الأخير، في انتفاضة لما تبقّى له من كرامة حيالي، أن يلعب رغم كلّ شيء دور الأب الشهم، فيكلّمني عن دروسي وعن مستقبلي الذي كنت أهدره. لكنّ ذلك لن يكون مجدياً على الإطلاق، صادراً عنه هو.

- إنّني متعبة...

---

(1) L’île de la Cité جزيرة في وسط نهر السين، في قلب باريس، تعتبر مهد العاصمة الفرنسيّة. وعلى طرفها الغربي حديقة فير غالان Square du Vert-Galant.

اقترحت عليها أن تتمدّد على الكنبة. لم تكن خلعت معطفها الواقي من المطر. تذكّرْتُ أنّ نظام التدفئة لم يعد يعمل.

- هل أنتِ جائعة؟ سأجلب لك شيئاً من المطبخ...

كانت على الكنبة، وقد ثنت ساقيها وجلست على عقبيها.

- لا داعي. مجرّد شيء أشربه...

لم يعد هناك ضوء في الردهة. وكان نور شاحب يرشح من الواجهة الزجاجيّة في الرواق العريض المؤدّي إلى المطبخ، فيملأ القاعة وكأنّها ليلة بدر. كان غرابلي ترك المصباح في سقف المطبخ مشتعلاً. أمام مصعد الخدمة القديم، لوحٌ للكيّ ميّزتُ عليه بنطالَ بذلته بنقشة أمير ويلز. كان يكوي بنفسه قمصانه وملابسه. على طاولة البريدج حيث كنت أتناول أحياناً وجباتي معه، كوب فارغ من اللّبن، وقشرة موزة، وكيس صغير من النسكافيه. تناول عشاءه هنا هذا المساء. عثرت على كوبَي لبن، وشريحة من السلمون، وبعض الفاكهة، وزجاجة من الويسكي لم يبق منها سوى ربعها. عند عودتي، وجدتها

تقرأ إحدى المجلّات التي يكدّسها غرابلي منذ عدّة أسابيع فوق موقد المكتب، مجلّات «منحلّة» كما كان يقول بنفسه، وكان يهواها.

وضعْتُ الطبق أمامنا، على الأرضيّة الخشبيّة.

كانت تركت المجلّة مفتوحة قربها، وكنت أميّز صورة بالأسود والأبيض لامرأة عارية تظهر من الخلف، شعرها مربوط، وساقها اليسرى ممدودة، واليمنى مثنيّة، وركبتها على نوابض سرير.

- مطالعاتك عجيبة...

- لا، لست أنا من يقرأ هذا... إنّه صديق لوالدي...

كانت تقضم تفّاحة وقد صبّت لنفسها قليلاً من الويسكي.

- ماذا وضعتِ في هذه الحقيبة؟ سألتها.

- آه، لا شيء ذا أهميّة... مجرّد أغراض شخصيّة...

- كانت تزن كثيراً. خلتها تحتوي على سبائك ذهب.

ابتسمت ابتسامة مرتبكة. شرحت لي أنّها كانت تسكن منزلاً في جوار باريس، من ناحية سان لو لافوريه، غير أنّ أصحابه عادوا بغتة في مساء اليوم السابق. ففضّلت

الرحيل، لأنّها قلّما كانت تتّفق معهم. في اليوم التالي، سوف تستأجر غرفة في فندق بانتظار إيجاد مسكن نهائيّ.

- يمكنك البقاء هنا قدر ما تشائين.

كنت واثقاً من أنّ غرابلي، بعدما يتخطّى لحظة المفاجأة في بادئ الأمر، لن يجد أيّ مانع. أمّا رأي والدي في المسألة، فلم يعد يهمّني.

- ربّما تشعرين بالنعاس؟

عرضْتُ أن أترك لها الغرفة في الطابق العلويّ. أمّا أنا، فسوف أنام على كنبة المكتب.

تقدّمتُها حاملاً الحقيبة على الأدراج الضيّقة المؤدّية إلى الطابق الخامس. كانت الغرفة فارغة مثل المكتب. مجرّد سرير لصق الجدار المقابل للباب. لم يعد هناك منضدة ليليّة، ولا مصباح قرب السرير. أشعلْتُ ضوئَي النيون في خزانتَي العرض من جانبي الموقد، حيث كان والدي يوضّب مجموعته من أحجار الشطرنج، غير أن تلك الأحجار أيضاً تبخّرت، ومعها الخزانة الصينيّة الصغيرة ولوحة مونتيتشيلّي الزائفة التي تركَتْ أثرها على التلبيسة من الخشب الأزرق السماويّ. كنت أودعت تلك

الأغراض الثلاثة بائع تحف قديمة يدعى ديلّافيرسانو حتّى يبيعها.

- هذه غرفتك؟ سألتني.

- نعم.

وضعْتُ الحقيبة أمام الموقد. وقفَتْ عند النافذة، كما قبل قليل في المكتب.

- إن نظرتِ مليّاً إلى اليمين، قلت لها، فسوف ترين تمثال هنري الرابع وبرج سان جاك.

ألقت نظرة ساهمة إلى رفوف الكتب بين النافذتين. ثمّ تمدّدَت على السرير وخلعَت حذاءيها بحركة متكاسلة من قدمها. سألتني أين سأنام.

- في الأسفل، على الكنبة.

- إبق هنا، قالت. هذا لا يزعجني.

احتفظَت بمعطفها الواقي من المطر. أطفأْتُ ضوء خزانتَي العرض وتمدّدت إلى جانبها.

- ألا تجد أنّ الجوّ بارد؟

اقتربَت منّي ووضعت رأسها برقّة على كتفي. كانت انعكاسات وظلال على شكل سياج تنزلق على الجدران

والسقف.

- ما هذا؟ سألتني.

- إنّه الزورق النهريّ يعبر.

انتفضْتُ مستيقظاً. كان أحدهم صفق باب المدخل.

كانت ممدّدة لصقي، عارية تحت معطفها الواقي من المطر. الساعة السابعة صباحاً. سمعت وقع خطى غرابْلي. كان يُجري اتّصالاً هاتفيّاً من المكتب. أخذ صوته يعلو، وكأنّه يشاجر أحدهم. ثمّ خرج من المكتب وذهب إلى غرفته.

استيقظَتْ بدورها وسألتني عن الساعة. قالت إنّ عليها أن تغادر. فهي تركت أغراضاً في المنزل في سان لو لافوريه، وتفضّل الذهاب لجلبها بأسرع ما يمكن.

اقترحْتُ عليها تناول الفطور. كان لا يزال هناك بضعة أكياس صغيرة من النسكافيه متبقّية في المطبخ، وواحدة من علب البسكويت «شوكو بي أن» تلك التي يشتريها

غرابلي بانتظام. حين عدت إلى الطابق الخامس حاملاً الطبق، وجدتها في الحمّام الكبير. خرجت مرتدية تنّورتها وكنزتها السوداوين.

قال إنّها سوف تتّصل بي بعيد الظهر. لم يكن لديها ورقة لتسجيل الرقم. فتناولْتُ كتاباً من على أحد الرفوف، اقتلعتُ صفحة الغلاف ودوّنْتُ عليها اسمي وعنواني و«دانتون 55-61». طوتها مرّتين وخبّأتها في أحد جيوب معطفها الواقي من المطر. ثمّ لامست شفتاها شفتيّ وهمست لي أنّها تشكرني وأنّها متلهّفة لرؤيتي من جديد.

رأيتها تمشي على قارعة رصيف النهر في اتّجاه جسر بون ديزار.

مكثْتُ بضع لحظات عند النافذة، مراقباً خيالها هناك، على الجسر.

*

طرحتُ الحقيبة في حجرة المهملات، عند أعلى السلالم. وضعتها على عرضها على الأرضيّة الخشبيّة. كانت مقفلة بالمفتاح. تمدّدتُ من جديد، وشممت عطرها

في ثنايا إحدى الوسادات. لا مفرّ من أن تخبرني في نهاية المطاف لماذا استجوبوها عصر اليوم السابق. حاولت أن أسترجع اسمَي الشخصين اللذين ذكرهما لي الشرطيّ، متسائلاً إن كنت أعرفهما. كان أحدهما على وزن «بوفور» أو «بوسكيه». ترى في أيّ مفكّرة عثروا على اسمي أنا؟ ربّما كان يريد الاستفهام عن والدي؟ سألني إلى أيّ بلد أجنبيّ رحل. موّهتُ الأمر وأجبت: «إلى بلجيكا».

كنت رافقت والدي في الأسبوع السابق إلى محطّة غار دو ليون. كان يرتدي معطفه الكحليّ القديم، ولم يكن يحمل معه سوى حقيبة جلديّة. وصلنا أبكر من موعد الرحلة، وانتظرنا قطار جنيف في صالة المطعم الفسيحة في الطابق الأوّل، من حيث كنّا نشرف على الردهة وعلى السكك الحديد. أكان ذلك تأثير نور نهاية النهار، أم زخارف السقف، أم الثريّات التي تنسدل أضواؤها باهرة علينا؟ فقد بدا لي والدي فجأة متعباً، وكأنّه شاخ دفعة واحدة، كمن يلعب لعبة القطّ والفأر منذ زمن مديد، وبات على وشك الاستسلام.

الكتاب الوحيد الذي حمله معه في تلك الرحلة كان

عنوانه «الصيد بالكلاب السلوقيّة». أوصاني مراراً بقراءته، لأنّ الكاتب يشير فيه إلى شقّتنا التي سكنها عشرين عاماً في ما مضى. يا للصدفة العجيبة... ألم تكن حياة والدي في بعض الفترات أشبه بحملة صيد، هو نفسه الطريدة فيها؟ لكنّه نجح حتّى ذلك الحين في الإفلات من الصيّادين.

كنا جالسَين وجهاً لوجه أمام فنجانَي قهوتنا. كان يدخّن، مبقياً السيجارة عند طرف شفتيه. وكان يحدّثني عن «دروسي» وعن مستقبلي. كان يعتبر أنّ الرغبة في كتابة روايات مثلما كنت أنوي أمر مثير للاهتمام للغاية، غير أنّه من الأفضل من باب الحيطة تحصيل بعض «الشهادات». بقيت صامتاً، مستمعاً إليه. كانت الكلمات «شهادات» و«وضع ثابت» و«مهنة» تتّخذ وقعاً غريباً حين تخرج من فمه. كان يتلفّظ بها بوقار، وبما يشبه الحنين. وبعد لحظة، صمتَ، ونفثَ سحابة من الدخان ورفع كتفيه.

لم نتبادل كلمة بعد ذلك، إلى أن دخل عربة القطار وانحنى من النافذة المفتوحة، فيما بقيت أنا على الرصيف.

«سيسكن غرابْلي الشقّة معك. وبعد ذلك، نتّخذ قراراً.

سيتحتّم استئجار شقّة أخرى».

لكنّه قال ذلك دون أيّ قناعة. انطلق قطار جنيف وساورني في تلك اللحظة إحساس غريب، وكأنّني أرى ذلك الوجه وذلك المعطف الكحليّ يبتعدان إلى الأبد.

*

قرابة الساعة التاسعة، نزلْتُ إلى الطابق الرابع. كنت سمعت وقع خطى غرابلي. وجدته جالساً على كنبة المكتب، في مبذله ذي المربّعات الاسكتلنديّة. بجانبه، طبق عليه فنجان شاي وعلبة بسكويت «شوكو بي إن». لم يكن حلق ذقنه، وبدت ملامحه متعبة.

- صباح الخير، أوبليغادو...

كان يطلق عليّ هذا اللّقب بسبب مشاجرة ودّيّة بيننا. فنحن تواعدنا ذات مساء أمام صالة سينما في جادّة لا غراند أرميه. شرح لي أنّ المكان كان عند محطّة أوبليغادو للمترو. لكنّ تلك المحطّة باتت تسمّى حينها محطّة الأرجنتين، ولم يشأ الإقرار بالأمر. راهنّا على الموضوع، وربحت الرهان.

- نمتُ ساعتين هذه الليلة. قمت بـ «جولة».

كان يداعب شاربيه الأشقرين، مغضّناً عينيه.

- في الأماكن ذاتها أيضاً؟

- دائماً.

كانت «جولته» تبدأ في كلّ مرّة بلا استثناء في الساعة الثامنة في مقهى ليه دو ماغو، حيث يتناول كأساً. ثمّ ينتقل إلى ضفّة السين اليمنى ويتوقّف في ساحة بيغال. ويبقى في ذلك الحيّ حتّى الفجر.

- وأنت، أوبليغادو؟

- باتت صديقة عندي الليلة الماضية.

- وهل والدك على علم بذلك؟

- لا.

- يجدر بك أن تسأله رأيه. سوف أكلّمه حتماً على الهاتف.

كان يقلّد والدي حين يتعمّد سلوكاً رزيناً مسؤولاً، لكنّه كان يبدو أكثر زيفاً من النموذج الأصليّ.

- ومن أيّ صنف من البنات هي تلك الفتاة؟

كان يكلّمني بالتعبير المداهن الذي يتّخده صباح كلّ يوم أحد ليقترح عليّ أن أرافقه إلى القدّاس.

- أوّلاً، ليست فتاة.

- هل هي جميلة؟

كنت أعرف تلك الابتسامة المستعطفة، وذلك الزهو، زهو مندوب تجاريّ يروي لك مغامراته الغراميّة أمام كوب من الجعة في مقهى محطّة بائس.

- أنا أيضاً كانت فتاتي هذه الليلة لا بأس بها...

بدأ يتّخذ نبرة عدوانيّة، وكأنّه يدخل في منافسة معي. لم أعد أدري تماماً ما الذي كنت أشعر به في تلك الفترة في حضور ذلك الرجل الجالس في المكتب الفارغ الذي كان يوحي بانتقال على عجل إلى منزل جديد، أو بقطع أثاث ولوحات مودعة في محلّ الرهون، أو حتّى بعملية حجز. كان البديل لوالدي، مساعده المكلّف بالأعمال الصغرى. كانا في أوائل صباهما حين تعارفا على أحد شواطئ الساحل الأطلسي، وقام والدي بإفساد ذلك البورجوازيّ الصغير الفرنسي. مضت ثلاثون سنة، وغرابلي يعيش في ظلّه. العادة الوحيدة التي احتفظ بها من طفولته ومن حسن تربيته، كانت الذهاب إلى القدّاس كلّ يوم أحد.

- هلّا قدّمتها لي، تلك الفتاة؟

كان يرمقني بطرفة عين متواطئة.

- يمكننا حتّى الخروج معاً، إن أردتما... فأنا أستلطف الأزواج الشبّان.

تصوّرتُنا أنا وهي في سيّارة غرابلي، تعبر بنا فوق نهر السين في اتّجاه بيغال. ثنائيّ فتيّ. كنت ذات مساء رافقته إلى ليه دو ماغو، قبل أن ينطلق في «جولته» الاعتياديّة. جلسنا إلى طاولة على رصيف المقهى. فوجئت لرؤيته يحيّي لدى عبورنا رجلاً وامرأة في حوالى الخامسة والعشرين من العمر. المرأة شقراء فاتنة، والرجل أسمر في غاية الأناقة. حتّى أنّه اقترب ليتحدّث إليهما، واقفاً أمام طاولتهما، فيما بقيتُ جالساً، أراقبهم. كان عمرهما ومظهرهما يتعارضان بشدّة مع سلوك غرابلي البالي، حتّى أنّني تساءلت بأيّ صدفة تعرّف عليهما. بدا على الرجل أنّه يستطرف حديث غرابلي، غير أنّ المرأة كانت أكثر برودة. وعند مفارقتهما، صافح غرابلي الرجل وحيّا المرأة هازّاً رأسه بوقار. قدّمهما لي ونحن خارجان، لكنّني نسيت اسميهما. ثمّ قال لي إنّ «العلاقة بذلك الرجل الشابّ مفيدة جدّاً» وإنّه تعرّف عليه خلال «جولاته» في بيغال.

- تبدو ساهماً أوبليغادو... هل أنت مغرم؟

كان نهض ووقف منتصباً أمامي، واضعاً يديه في جيبي مبذله.

- إنّني مضطرّ إلى العمل طوال النهار. عليّ أن أفرز جميع الأوراق وأنقلها من المبنى رقم 73.

كان ذلك مكتباً استأجره والدي في جادّة أوسمان. غالباً ما كنت أوافيه هناك عند المساء. غرفة تشكّل زاوية، سقفها عالٍ جدّاً. كان النور يدخلها عبر أربع واجهات زجاجيّة مطلّة في الجادّة وعلى شارع لاركاد. خزائن لصق الجدران، وطاولة ضخمة صُفّت عليها محابر ونشّافات حبر ومنضدة كتابة.

أيّ أعمال تراه كان يزاول هناك؟ في كلّ مرّة، كنت «أضبطه» يتكلّم على الهاتف. وها أنّني بعد مضيّ ثلاثين عاماً، أكتشف للتوّ وبمجرّد الصدفة ظرفاً طُبع على ظهره: شركة الدراسات المدنيّة لمعالجة المعادن، 73 جادّة أوسمان، باريس الدائرة الثامنة.

- بإمكانك ملاقاتي في الرقم 73 مع صديقتك. سوف نذهب لتناول العشاء معاً...

- لا أعتقد أنّها ستكون متفرّغة هذا المساء.

بدت عليه خيبة الأمل. أشعل سيجارة.

- في مطلق الأحوال، اتّصل بي على الرقم 73 لتقول لي ما تنوي القيام به... سأكون مسروراً بلقائها...

فكّرت أنّه يجدر بي الإبقاء على مسافة بيننا، وإلّا فقد يلازمنا على مدار اليوم. لكنّني لم أحسن يوماً رفض طلب.

مكثت في المكتب أطالع، بانتظار اتّصالها. قالت لي إنّها ستتّصل بي بُعيد الظهر. وضعت الهاتف على الكنبة. واعتباراً من الساعة الثالثة، بدأ قلق غامض يساورني، راح يزداد تدريجيّاً. خفت ألّا تعود تتّصل بي. عبثاً حاولتُ مواصلة قراءتي. أخيراً، رنّ الهاتف.

لم تكن جلبت بعد باقي أغراضها من سان لو لافوريه. تواعدنا أن نلتقي في الساعة السادسة في مقهى تورنون.

كان لديّ ما يكفي من الوقت لأقصد ديلّافيرسانو وأسأله بكم ينوي أن يشتري منّي لوحة مونتيتشيلّي الزائفة والخزانة الصينيّة الصغيرة وأحجار الشطرنج التي أودعتها لديه.

عبرْتُ جسر بون نوف وتبعت أرصفة النهر. كان

ديلّافيرسانو يملك محلّ تحف قديمة في شارع فرنسوا ميرون، بعد قصر البلديّة. كنت التقيته قبل ذلك بشهرين، فيما كنت أختار بضعة كتب مستعملة من بين مجموعة مصفوفة على رفوف عند مدخل متجره.

كان رجلاً أربعينيّاً أسمر، ملامح وجهه رومانيّة وعيناه فاتحتان. كان يتكلّم الفرنسيّة بلكنة طفيفة. شرح لي أنّه يعمل في تجارة التّحف القديمة بين فرنسا وإيطاليا، لكنّني لم أطرح عليه الكثير من الأسئلة بهذا الصدد.

كان في انتظاري. اصطحبني لتناول فنجان قهوة على رصيف نهر السين، قرب كنيسة سان جيرفيه. مدّ لي ظرفاً، قائلاً إنّه مستعدّ لشراء كلّ الأغراض لقاء سبعة آلاف وخمسمائة فرنك. شكرته. بإمكاني تغطية نفقاتي لفترة طويلة بفضل ذلك المبلغ. وبعدها، يتحتّم عليّ مغادرة الشقّة وتدبّر أمري لوحدي.

سألني ديلّافيرسانو، وكأنّه يقرأ أفكاري، عمّا أعتزم القيام به في المستقبل.

- أتعلم، عرضي لك ما زال قائماً...

كان يبتسم لي. في آخر مرّة زرته فيها، قال لي إنّ بوسعه

أن يؤمّن لي وظيفة في روما، عند صاحب مكتبة يعرفه، هو بحاجة إلى موظّف فرنسيّ.

- هل فكّرت في الأمر؟ هل توافق على العمل في روما؟

قلت له أنْ نعم. ففي مطلق الأحوال، لم يعد لديّ ما يستبقيني في باريس. كنت واثقاً من أنّ روما ستناسبني. هناك، أبدأ حياة جديدة. عليّ أن أحصل على خارطة لتلك المدينة، أن أدرسها يوميّاً وأتعلّم أسماء كلّ الشوارع وكلّ الساحات.

- هل تعرف روما جيّداً؟ سألته.

- أجل، ولدت هناك.

سوف أزوره بين الحين والآخر حاملاً معي خارطتي، وأستفهم منه عن أحياء المدينة. بهذه الطريقة، لن أشعر بالغربة عند وصولي إلى روما.

هل توافق على مرافقتي؟ سوف أفاتحها في الأمر هذا المساء. قد يكون هذا حلّاً لمشكلاتها هي أيضاً.

- هل سكنت روما؟

- بالطبع، أجابني. لخمسة وعشرين عاماً.

- في أيّ شارع؟

- ولدت في حيّ سان لورنزو، وعنواني الأخير كان في شارع أوكليدي.

وددت لو أدوّن اسمي الحيّ والشارع، لكنّني سوف أحاول أن أتذكّرهما لأبحث عنهما لاحقاً على الخارطة.

- هل يمكنك أن تغادر الشهر المقبل؟ سألني. سيجد لك هذا الصديق مسكناً. لا أعتقد أن هذا العمل شاقّ. للأمر صلة بكتب فرنسيّة.

أخذ مجّة مطوّلة من سيجارته، ثمّ، في حركة رقيقة وكأنّها متباطئة، حمل فنجان القهوة إلى شفتيه.

أخبرني أنّه في صباه، في روما تحديداً، كان يجلس مع أصدقائه على رصيف مقهى. كانوا يتبارون ليروا من منهم يمكنه قضاء أطول فترة من الوقت لشرب كوب من عصير البرتقال. غالباً ما كان الأمر يستمرّ عصراً بكامله.

وصلت أبكر من الموعد، وتسكّعت في ممرّات حديقة لوكسمبورغ. كانت تلك أوّل مرّة أشعر فيها بالشتاء يقترب. كانت أيّام خريفيّة مشمسة تعاقبت علينا حتّى ذلك الحين.

عند خروجي من الحديقة، كان الليل يهبط، والحرّاس يستعدّون لإغلاق البوّابات.

اخترت مقعداً في عمق صالة مقهى تورنون. في العام السابق، كان ذلك المقهى بمثابة ملاذ لي، حين كنت أتردّد إلى ثانويّة هنري الرابع، والمكتبة العامّة في الدائرة السادسة، وسينما بونابرت. كنت أراقب فيه أحد الروّاد المواظبين، الكاتب تشيستر هايمز الذي كان محاطاً على الدوام بعازفي جاز وحسناوات شقراوات.

وصلتُ إلى مقهى تورنون قرابة الساعة السادسة، وفي السادسة والنصف، لم تكن حضرتْ بعد. كان تشيستر هايمز جالساً على المقعد، قرب الواجهة الزجاجيّة، برفقة امرأتين. كانت إحداهما تضع نظّارتين شمسيّتين. وكان الثلاثة مستغرقين بانفعال في حديث بالإنكليزيّة. كان بعض الزبائن واقفين أمام منضدة الشرب، يحتسون كؤوساً. حاولت متابعة حديث هايمز وصديقتيه، ساعياً إلى التغلّب على عصبيّتي، لكنّهم كانوا يتكلّمون بوتيرة سريعة للغاية، باستثناء إحدى المرأتين التي كانت تتكلّم بلكنة إسكندينافيّة، فكنت أفهم بعضاً ممّا تقوله. كانت تودّ الانتقال إلى فندق آخر، وتسأل هايمز عن اسم الفندق الذي نزل فيه في بداية إقامته في باريس.

كنت أترقّبها من خلال الزجاج. كان الليل هبط. توقّفت سيّارة أجرة أمام مقهى تورنون. خرجَتْ منها. وكانت ترتدي معطفها الواقي من المطر. خرج السائق بدوره. فتح الصندوق الخلفيّ ومدّ لها حقيبة أصغر من حقيبة الليلة السابقة.

توجّهَت صوبي، حاملةً الحقيبة. بدت مسرورة برؤيتي.

كانت عائدة من سان لو لافوريه، حيث تمكّنت من جلب باقي أغراضها. وجدَت غرفة فندق لذلك المساء. طلبت منّي فقط أن أعيد تلك الحقيبة معي إلى منزلي. كانت تفضّل أن تضعها «في مأمن» هناك، مع الحقيبة الأخرى. قلت لها من جديد إنّ هاتين الحقيبتين تحتويان على سبائك ذهبيّة. لكنّها أجابت أنّها مجرّد أغراض لا قيمة خاصّة لها، سوى بالنسبة لها.

أفهمتُها بنبرة تتوخّى الإقناع أنّها أخطأت باستئجارها غرفة فندق، لأنّ بوسعي إيواءها في الشقّة قدر ما تشاء.

- من الأفضل أن أنزل في الفندق.

شعرتُ بتحفّظ لديها. كانت تخفي عليّ أمراً ما، وتساءلت إن كان ذلك لأنّها لا تثق بي تماماً، أم أنّها تخشى أن تصدمني إن كشفت لي الحقيقة.

- وأنتَ؟ أيّ أخبار سارّة؟

- لا شيء تحديداً. بعت قطع أثاث من الشقّة للحصول على بعض النقود.

- ونجحت في ذلك؟

- أجل.

- هل كنت بحاجة إلى المال؟

كانت تحدّق بي بنظرتها الزرقاء الشاحبة.

- هذا تصرّف أحمق. بوسعي أنا إقراضك مبلغاً من المال.

كانت تبتسم لي. جاء النادل ليسجّل طلبنا. كانت تريد كوباً من شراب الرمّان. وطلبْتُ مثلها.

- ادّخرت مبلغاً ضئيلاً من المال، قالت لي. إنّه في تصرّفك.

- أنت في غاية اللطافة، لكن أظنّ أنّني وجدت عملاً.

أخبرتها عن عرض ديلّافيرسانو بالذهاب إلى روما للعمل في مكتبة. تردّدْتُ لحظة، ثمّ حسمتُ أمري:

- بإمكانك مرافقتي إلى هناك...

لم تُبْدِ أيّ دهشة لتلقّي هذا الاقتراح.

- أجل... ستكون فكرة جيّدة. وهل تعرف أين ستقيم في روما؟

- سوف يجد لي صاحب المكتبة الذي سأعمل عنده مسكناً.

احتست جرعة من شراب الرمّان. كان لون الشراب

ينسجم تماماً مع زرقة عينيها الفاتحة.

- ومتى تغادر؟

- بعد شهر.

خيّم الصمت بيننا. وكما بالأمس، في مقهى جزيرة لا سيتيه، خُيّل لي أنّها نسيت وجودي، وأنّها قد تنهض وتغادر.

- لطالما حلمت بالرحيل للعيش في لندن أو روما، قالت لي.

نظرت إليّ من جديد.

- يمكننا أن نكون مطمئنّين في مدينة غريبة... فلا أحد يعرفنا...

كانت أدلت لي من قبل بملاحظة مماثلة في المترو، مساء اليوم السابق. أردت أن أستفهم إن كان ثمّة في باريس من يضمر لها شرّاً.

- لا يمكنني قول ذلك. لكن بسبب الاستجواب أمس... أشعر بأنّني مراقَبة. فهم يطرحون الكثير من الأسئلة... سألوني عن أشخاص عرفتهم في الماضي، لكنّني لم أعد أقابلهم منذ زمن طويل.

هزّت كتفيها.

- المزعج في المسألة أنّهم لم يصدّقوني... لا بدّ أنّهم يتصوّرون أنّني ما زلت أخالط هؤلاء الأشخاص...

اقترب بعض الزبائن وجلسوا إلى الطاولة المجاورة.

أدنت وجهها من وجهي.

- وأنت؟ سألتني خافضة صوتها. كم كان عدد الذين استجوبوك؟

- واحد فقط. ذلك الذي كان هناك عندما دخلتِ...

- كانوا اثنين معي أنا. الثاني وصل بعد وقت. ادّعى أنّه كان يمرّ من هناك بالصدفة، لكنّه راح يطرح عليّ أسئلة. وفي الوقت نفسه، واصل الآخر أيضاً الاستجواب. خيّل لي أنّني كرة بينغ بونغ.

- لكن من هم هؤلاء الأشخاص الذين خالطتِهم؟

- لم أكن أعرفهم جيّداً. أعتقد أنّني التقيتهم مرّة أو مرّتين، بكلّ بساطة.

كانت تدرك أنّ ذلك الجواب لم يكن مرْضياً بنظري.

- أنت أيضاً، حين قالوا لك إنّ اسمك مدوّن على مفكّرة... لم تعرف حتّى عمّن كانوا يتكلّمون...

- والآن، يخيّل لكِ أنّكِ مراقَبة؟

عقدَت حاجبيها. وراحت ترمقني بنظرة غريبة، وكأنّ شكوكاً ساورتها فجأة. حزرت ما كان يجول ببالها: فهي رأتني لأوّل مرّة وأنا خارج من مركز الشرطة، وبعد ثلاث ساعات، كنت لا أزال في الجوار، جالساً على رصيف ذلك المقهى.

- هل تعتقدين أنّني مكلّف مراقبتك؟ سألتها مبتسماً.

- لا، ليس لديك ملمح شرطيّ. ولا عمر شرطيّ.

كانت تتفرّس في وجهي. انفرجت أساريرها، وفي نهاية المطاف، قهقهنا ضاحكين.

*

كانت الحقيبة تزن أقلّ من حقيبة مساء اليوم السابق. سلكنا شارع تورنون وشارع السين، وصولاً إلى رصيف النهر. لم يكن هناك أيّ ضوء خلف نوافذ الشقّة. كانت الساعة تقارب السابعة والنصف، وفي مكتب الرقم 73 من جادّة أوسمان، لا بدّ أنّ غرابلي كان لا يزال يوضّب «أوراقاً» لم يخطر لي وجودها يوماً. لطالما ظننت أنّ ذلك

المكتب فارغ تماماً مثل المحابر على الطاولة، وأنّ والدي كان يشغله كمن يجلس في قاعة انتظار. لذلك دهشت بعد ثلاثين عاماً، حين اكتشفت أثراً ملموساً لمروره في جادّة أوسمان، أثراً يتمثّل في ذلك الظرف الذي يحمل اسم «شركة الدراسات المدنيّة لمعالجة المعادن». لكن مجرّد اسم مدوّن على ظهر ظرف لا يثبت، والحقّ يقال، شيئاً يُذكر: فمهما قرأته مراراً وتكراراً، تبقى في المجهول.

أردت أن أُريها أين أخفيتُ الحقيبة الأولى، فتسلّقنا السلالم الداخليّة الضيّقة حتّى الطابق الخامس. كان باب حجرة المهملات يُفتح من الجانب الأيسر، قبل الغرفة مباشرةً. وكانت رائحة جلد ونبات عطريّ تفوح في تلك الحجرة. وضعْتُ الحقيبة التي كنت أحملها بجانب الأخرى، وأطفأت الضوء. كان مفتاح باب الحجرة داخل القفل. أقفلت الباب بإحكام وناولتها المفتاح.

- احتفظ به، قالت لي.

نزلنا إلى المكتب. كانت تريد إجراء اتّصال. طلبت رقماً، لكنّها لم تلق جواباً.

أقفلَت الخطَّ خائبة.

- عليّ تناول العشاء هذا المساء مع شخص. هل يمكنك مرافقتي؟

- إن أردتِ ذلك.

أجبتها بحميميّة من غير أن أتقصّد ذلك.

كانت على وشك أن تضيف شيئاً، لكنّه بدا واضحاً أنّها كانت مرتبكة.

- هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟ لا تأتِ على ذكر ذلك الاستجواب بالأمس، وقل إنّك شقيقي...

لم يفاجئني ذلك الطلب. كنت على استعداد للقيام بكلّ ما تريد.

- هل لديكِ شقيق بحقّ؟

- لا.

لكن لم يكن لذلك أيّ أهميّة. لم تكن تعرف منذ وقت طويل ذلك «الشخص» الذي سنلتقيه بعد قليل، ومن المنطقي بالتالي ألّا تكون أطلعته حتّى ذلك الحين على وجود شقيق لها مقيم في جوار باريس. لنقل في مونمورانسي، على مقربة من سان لو لافوريه.

رنّ جرس الهاتف. انتفَضَت جفلة. رفعتُ السمّاعة.

كان ذلك غرابلي. كان لا يزال في الرقم 73 في جادّة أوسمان، وقد رتّب عدداً كبيراً من «الملفّات». تكلّم مع والدي للتوّ بالهاتف، فأعطاه تعليمات بالتخلّص بأسرع ما أمكن من كلّ الأوراق. كان حائراً بين أمرين: فإمّا أن ينتظر حتّى يُخرج بوّاب الرقم 73 نفايات المبنى الى رصيف الجادّة، فيلقي «الملفّات» بينها، أو يرميها مباشرةً في فتحة مجرى تصريف رصدها في شارع لاركاد. لكنّه في كلتا الحالتين يجازف بلفت الانتباه إليه.

- وكأنّه يتحتّم عليّ التخلّص من جثّة، يا عزيزي أوبليغادو...

سألني عن أخبار «صديقتي». لا، لا يمكننا أن نلتقي نحن الثلاثة معاً هذا المساء. فهي مدعوّة للعشاء عند شقيقها، في مكان بين مونمورانسي وسان لو لافوريه.

أوصلتنا سيّارة الأجرة إلى زاوية جادّة الشانزيليزيه وشارع واشنطن. أصرّت على دفع الأجرة بنفسها للسائق. تبعنا الشارع، على الرصيف الأيسر. ودخلنا أوّل مقهى صادفناه. كان زبائن يحيطون بآلة الفليبّر، قرب الواجهة الزجاجيّة، وكان أحدهم يلعب، فيما الآخرون يتكلّمون بصخب.

عبرنا الصالة. كانت تضيق عند طرفها لتصبح بعرض ممرّ تتعاقب على طوله طاولات ومقاعد من القماش الملمّع البرتقاليّ، كما في عربة المطعم في قطار. عند اقترابنا، نهض رجل أسمر لا يكاد يبلغ الثلاثين.

عرّفتنا أحدنا على الآخر.

- جاك... شقيقي لوسيان...

دعانا بإشارة بيده إلى الجلوس على المقعد المقابل له.

- يمكننا تناول العشاء هنا... هل هذا يناسبكما؟

ودونَ أن ينتظر ردّنا، رفع ذراعه مشيراً للنادل الذي حضر لتدوين طلبنا. اختار لنا طبقاً يوميّاً. بدت غير آبهة لما ستأكله.

كان يحدّق بي بفضول.

- لم أكن على علم بوجودكَ... يسعدني كثيراً أن ألتقي بك...

نظر إليها هي أيضاً، ثمّ عاد وحوّل نظره إليّ.

- صحيح... هناك شبه بينكما...

لكنّني لمست شكّاً في هذه الملاحظة.

- لم يتمكّن أنسار من الحضور. سوف نوافيه بعد العشاء.

- لست أدري، قالت. إنّني متعبة قليلاً، وعلينا أن نعود إلى سان لو لافوريه.

- لا يهمّ. سوف أعيدكما بالسيّارة.

كان وجهه ودوداً وصوته عذباً. وكان ثمّة قدر من الأناقة في بذلته القطنيّة القاتمة.

- أيّ مهنة تزاول لوسيان؟

- ما زال طالباً، أجابت. يدرس الأدب.

- أنا أيضاً تابعت دروساً. دروس في الطبّ.

قال تلك الجملة الأخيرة بقليل من الحزن، وكأنّه يتكلّم عن ذكرى أليمة. قدّموا لنا طبقاً من السلمون والسمك المدخّن.

- صاحب المطعم دانماركيّ، شرح لي. ربّما لا تحبّ الأطباق الإسكندنافيّة.

- بلى، بلى، تعجبني كثيراً.

قهقهَتْ بالضحك. التفتَ صوبها.

- ما الذي يضحكك؟

كان يكلّمها بنبرة حميمة. ترى منذ متى يعرفها، وفي أيّ مناسبة التقيا؟

- لوسيان هو الذي يضحكني.

قالتها وهي تشير إليّ بحركة من ذقنها. ما كانت تحديداً العلاقة التي تربطهما؟ ولماذا تدّعي أنّني شقيقها؟

- كان بودّي أن أدعوكما إلى العشاء في منزلي، قال. لكنْ هذا المساء، لم يكن لديّ شيء في المطبخ.

لم تكن تناولَتْ سوى بضع لقَم من طبقها، وأشعلت سيجارة.

- ألستِ جائعة؟

- لا، ليس في الوقت الحاضر.

- تبدين مهمومة...

أمسك بمعصمها بحنان. حاولَت الإفلات، لكنّه كان يتشبّث بها، فأذعنت وتركته. بقي ممسكاً بيدها.

- هل تعرفان أحدكما الآخر منذ زمن طويل؟ سألْت.

- ألم تكلّمك جيزيل عنّي أبداً؟

- قلّما اجتمعنا أنا وشقيقي في الآونة الأخيرة، أجابته. كان يسافر على الدوام.

كان يبتسم لي.

- قدّم لي أحد أصدقائي شقيقتك قبل خمسة عشر يوماً... بيار أنسار... هل تعرف بيار أنسار؟

- لا، أجابت. لا يعرفه.

بدت سئمة فجأة، وعلى وشك النهوض عن الطاولة.

لكنّه كان لا يزال يمسك بيدها.

- ألستَ مطّلعاً على حياة شقيقتك؟

قال تلك الجملة الأخيرة وعلى وجهه ملامح ريبة.

في هذه الأثناء، فتحَتْ حقيبة يدها وأخرجت منها نظّارتين شمسيّتين ووضعتهما.

- جيزيل شديدة التكتّم، قلت بنبرة لامبالاة. هي لا تبوح بالكثير عن نفسها.

انتابني إحساس غريب وأنا ألفظ اسمها للمرّة الأولى. لم تكن أفصحت لي حتّى عن اسمها منذ اليوم السابق. التفتّ صوبها. لم يكن وجهها يكشف عن أيّ مشاعر خلف نظّارتيها الشمسيّتين، وبدت نائية، وكأنّها لم تتابع الحديث، وأنّه يدور في مطلق الأحوال حول شخص غيرها.

ألقى نظرة إلى ساعته. كانت العاشرة والنصف.

- هل سيأتي شقيقك معنا عند أنسار؟

- أجل، لكنّنا لن نمكث طويلاً هناك، أجابت. عليّ أن أعود معه هذا المساء إلى سان لو لافوريه.

- إذن سأرافقكما في السيّارة، وأعود بعدها لرؤية أنسار.

- لا تبدو مسروراً...

- بلى، قال بنبرة جافّة. إنّني مسرور.

ربّما لم يكن يجرؤ على الدخول في جدل معها في حضوري.

- لا داعي لأن تقوم بعدّة رحلات ذهاباً وإياباً، قالت. سوف نستقلّ سيّارة أجرة للعودة إلى سان لو لافوريه.

*

صعدنا في سيّارة كحليّة كانت متوقّفة في الممرّ الجانبيّ الموازي لجادّة الشانزيليزيه. جلسَتْ في المقعد الأماميّ.

- هل لديكَ رخصة قيادة؟ سألني.

- لا، لم أحصل على واحدة بعد.

التفتَتْ صوبي. كنت أحزر نظرتها الزرقاء الفاتحة خلف نظّارتيها الشمسيّتين. كانت تبتسم لي.

- غريب... لا أتصوّر شقيقي يقود سيّارة...

انطلق وقاد متمهّلاً في جادّة الشانزيليزيه. كانت لا تزال ملتفتة صوبي. وبحركة تكاد تكون خفيّة من فمها، أرسلت لي قبلة. قرّبْتُ وجهي من وجهها. كنت على

وشك أن أقبّلها. ولم يكن وجود ذلك الرجل ليكبحني على الإطلاق. وددت بجموح أن أحسّ بشفتيها وأداعبها، إلى حدّ لم يعد معه لوجوده أيّ أهميّة.

- يجدر بك إقناع شقيقتك باستخدام هذه السيّارة. هذا سيجنّبها سيّارات الأجرة والمترو...

جفلْتُ لسماعه، وأعادني صوته إلى الواقع. أشاحَتْ بوجهها.

- بوسعك أن تأخذي السيّارة متى شئتِ، جيزيل...

- هل يمكنني أن آخذها هذا المساء للعودة إلى سان لو لافوريه؟

- هذا المساء؟ إن كنت مصرّة...

- بودّي أن آخذها هذا المساء. عليّ أن أعتاد قيادتها.

- كما تشائين.

كنّا نتقدّم بمحاذاة غابة بولونيا. بوّابة لا مْويت. بوّابة باسّي. كنت فتحت النافذة قليلاً، ورحت أتنشّق هواء منعشاً يتسرّب إليّ، ممزوجاً برائحة أوراق أشجار وتربة مبلّلة. كان بودّي التسكّع معها في ممرّات الغابة، وعلى ضفاف البحيرات، من جانب الشلّال أو ملعب «لا كروا

كاتلان» الرياضيّ، حيث كنت أذهب أحياناً كثيرة وحيداً في نهاية النهار، بعدما أستقلّ المترو للابتعاد من وسط باريس.

انعطف في شارع رافّيه وركن السيّارة عند زاوية شارع دكتور بلانش. تعرّفت بشكل أفضل على ذلك الحيّ بعد ذلك ببضع سنوات، وعبرت مراراً أمام المبنى الذي لاقينا فيه أنسار في تلك الليلة. كان ذلك في الرقم 14 من شارع رافّيه. غير أنّ التفاصيل الطوبوغرافيّة لها تأثير عجيب عليّ: فبدل أن تجعل صورة الماضي أقرب إليّ وأوضح، تثير لديّ إحساساً موجعاً بأواصر انقطعت من غير رجعة، وبفراغ.

عبرنا فناء العمارة. في العمق، بناء صغير ذو طابق واحد. دقّ على الجرس. أطلّ رجل أسمر مربوع القامة جسيم في حوالى الأربعين من العمر. كان يرتدي قميصاً مفتوح الياقة تحت كنزة بلون رمليّ. قبّل جيزيل وضمّ جاك.

كنّا في قاعة جدرانها بيضاء. وكانت فتاة شقراء في العشرين من العمر جالسة على أريكة حمراء. مدّ لي أنسار

يده وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

- إنّه شقيق جيزيل، قال جاك. وهو بيار أنسار.

- تشرّفت، قال أنسار.

كان يتكلّم بصوت رصين، وبلكنة طفيفة من الضواحي. في هذه الأثناء، نهضت الفتاة الشقراء وقبّلت جيزيل.

- أقدّم لكَ مارتين، قال أنسار.

حيّتني الشقراء بحركة طفيفة برأسها وابتسامة خجول.

- هكذا إذن، تخفين علينا وجود شقيقك؟ سأل أنسار.

كان يقلّب النظر بيننا بعينين حادّتين. هل كانت تلك الكذبة تنطلي عليه؟ جلسنا نحن الثلاثة على كنبات حمراء بلون الأريكة. أمّا أنسار، فجلس على الأريكة ووضع ذراعه حول كتفَي الفتاة الشقراء.

- هل تناولتم العشاء في شارع واشنطن؟

هزّ جاك رأسه إيجاباً. في عمق القاعة، كانت سلالم تتصاعد حلزونيّة. وفي أعلاها، فتحة في السقف مغلقة، تفضي على الأرجح إلى غرفة نوم. إلى اليسار، وفي امتداد الصالون، مطبخ فسيح لا بدّ أنّه كان يُستخدم أيضاً غرفة

طعام، بوسعي أن أميّز من كنبتي بياضه الناصع وتجهيزاته الجديدة اللمّاعة.

تنبّه أنسار لنظراتي.

- إنّه مرآب قديم حوّلته إلى شقّة.

- إنّه ظريف جدّاً، قلت له.

- هل تودّون شرب شيء؟ كوب من شاي الزيزفون؟

نهضت الفتاة الشقراء متوجّهة إلى المطبخ.

- أحضري لنا أربعة أكواب من شاي الزيزفون مارتين، قال أنسار بسطوة أبويّة.

كان لا يزال يحدّق بي، وكأنّه يسعى لتبيان طينتي.

- أنت شابّ للغاية...

- عمري واحد وعشرون عاماً.

ردّدت كذبة اليوم السابق. نزعَتْ نظّارتيها الشمسيّتين وراحت تتأمّلني وكأنّها تراني للمرّة الأولى.

- إنّه يتابع دروساً، قال جاك وهو ينظر إليّ بدوره.

شعرت بالإحراج لإحساسي بأنّني محطّ اهتمامهم. بدأت أتساءل ما الذي كنت أفعله هناك، بين هؤلاء الأشخاص الذين لا أعرفهم. هي أيضاً لم أكن أعرفها

أكثر منهم.

- أيّ دروس؟ سأل أنسار.

- دروس في الأدب، أجاب جاك.

خرجت الفتاة الشقراء من المطبخ حاملةً طبقاً وضعته في وسطنا على الموكيت. وبحركات رقيقة، مدّت لكلّ منّا فنجاناً من شاي الزيزفون.

- ومتى تنهي دروسك؟ سألني أنسار.

- بعد سنتين أو ثلاث سنوات.

- وفي انتظار ذلك، أفترض أنّ والديك يتكفّلان بنفقاتك، أليس كذلك؟

كانوا جميعهم يحدّقون بي، وكأنّني مخلوق عجيب. خيّل لي أنّني ألمس في صوت أنسار قدراً من الازدراء، وكأنّه يجدني طريفاً.

- من حسن حظّك أنّ لديك والدين يساعدانك...

قالها بمرارة طفيفة، وفي عينيه ظلال من الحزن.

ماذا عساني أن أجيبه؟ فكّرت في والدي، وهروبه إلى سويسرا، وغرابْلي، والشقّة الفارغة، وديلّافيرسانو، ووالدتي المتوارية في جنوب إسبانيا... من الأفضل في

النهاية أن يعتبرني شابّاً يعتمد على والديه لإعالته.

- أنتم مخطئون، قالت فجأة. لا أحد يساعده. شقيقي يتدبّر أمره وحده...

تأثّرتُ لرؤيتها تهبّ لمساعدتي. كنت نسيت أنّنا شقيق وشقيقة، وأنّ لدينا بالتالي نفس الوالدين.

- وفي مطلق الأحوال، لم يعد لدينا أيّ عائلة. هذا ما يبسّط الأمور...

ابتسم أنسار ابتسامة عريضة.

- يا لكما من طفلين مسكينين...

انفرجت الأجواء. ملأت الفتاة الشقراء أكوابنا الفارغة بالمزيد من شاي الزيزفون. كانت تبدي الكثير من المودّة لجيزيل، وتكلّمها بألفة.

- هل ستمرّ على المطعم هذا المساء؟ سأل جاك.

- أجل، أجاب أنسار.

التفتَت جيزيل صوبي:

- بيار لديه مطعم صغير في الحيّ.

- آه، لا شيء مهمّاً على الإطلاق، علّق أنسار. مجرّد محلّ لم تكن أوضاعه جيّدة، فاستعدته من صاحبه،

هكذا، لمجرّد التسلية...

- سوف نصطحبكما إلى هناك ذات مساء لتناول العشاء، قال جاك.

- لا أدري إن كان شقيقي سيأتي. فهو لا يخرج إطلاقاً.

تكلّمَت بنبرة قاطعة، وكأنّها تريد حمايتي منهم.

- لكنْ رغم ذلك، سيكون جميلاً أن نتناول العشاء معاً نحن الأربعة، قالت الفتاة الشقراء.

كانت تنقّل نظرها بصدق بيني وبين جيزيل. كانت تبدي لنا نوايا طيّبة.

- علينا أن نعود أنا ولوسيان إلى سان لو لافوريه، قالت جيزيل.

- ألا تريدين البقاء قليلاً بعد؟ سأل جاك.

أخذْتُ نفساً عميقاً وقلت بصوت ملؤه الثقة:

- لا، علينا الذهاب حالاً. لدينا بعض المتاعب أنا وشقيقتي بخصوص المنزل...

لا بدّ أنّها كلّمتهم عن منزل سان لو لافوريه. ربّما أعطتهم بهذا الصدد تفاصيل أخرى لم أكن على علم بها.

- ستأخذين السيّارة إذن؟ سأل جاك.

- أجل.

التفتَ إلى أنسار:

- سوف أعيرها السيّارة. هل تمانع إن استعرت إحدى سيّاراتك؟

- لا إطلاقاً. سوف نذهب بعد قليل لجلبها من المرآب.

نهضنا، أنا وهي. قبّلَت الفتاة الشقراء. وصافحْتُ أنا أنسار وجاك.

- متى نلتقي؟ سألها جاك.

- سوف أتّصل بكَ.

بدت عليه خيبة كبيرة لرحيلها.

- اعتنِ جيّداً بشقيقتك.

وناولها مفاتيح السّيارة.

- احترسي على الطريق. وإن لم تتلقّي ردّاً بالهاتف في منزلي غداً فاتّصلي بالمطعم.

كان أنسار يحدّق بي كما فعل عند وصولي.

- تشرّفت بمعرفتك. وإن احتجتَ يوماً إلى أيّ شيء...

فاجأني ذلك الاهتمام المباغت.

- من الصعب أحياناً أن يكون الواحد بعمرك... إنّني

مدرك جيّداً لهذا الامر، فأنا أيضاً مررت به...

كانت نظرته تعكس حزناً يتباين وصوتَه الرخيم وقسمات وجهه المفعمة بالحيويّة.

رافقتنا الفتاة الشقراء إلى الباب.

- يمكننا أن نتقابل غداً، قالت لجيزيل. أنا ألازم المنزل طوال النهار.

بدا وجه تلك الفتاة أكثر نضارة عند عتبة المنزل، في عتمة الفناء. خطر لي أنّ أنسار في سنّ تخوّل له أن يكون والدها. عبرنا الفناء، فيما بقيَتْ هي واقفة هناك، تتابعنا بعينيها. كان خيالها يرتسم داخل إطار الباب، على خلفيّة الضوء. خِلتها تودّ الانضمام إلينا. لوّحت لنا بذراعها.

نسينا أين كانت السيّارة مركونة. انحدرنا في الشارع بحثاً عنها.

- ما رأيك لو نستقلّ المترو؟ قالت. مسألة السيّارة هذه معقّدة... وفي مطلق الأحوال، أظنّ أنّني أضعت المفاتيح...

نبرتها المستهترة أثارت لديّ نوبة ضحك، انتقلت إليها أيضاً. وسرعان ما فقدنا السيطرة. راحت أصداء قهقهاتنا

تتردّد في الشارع المقفر الصامت. حين وصلنا إلى طرفه، عدنا وعبرناه في الاتّجاه المعاكس، على الرصيف المقابل. وجدنا السيّارة أخيراً.

فتحَتِ الباب بعدما جرّبت المفاتيح الأربعة المعلّقة في السلسلة. جلسنا على المقاعد الجلديّة.

- عليّ الآن أن أعرف كيف أنطلق بها، قالت.

نجحتْ في إدارة المحرّك. اندفعت بالسيّارة بشكل مفاجئ إلى الخلف، وأوقفتها في اللحظة التي كانت فيها تتسلّق الرصيف وباتت على وشك صدْم بوّابة مبنى.

سلكَتِ الشارع في اتّجاه غابة بولونيا، متشنّجة الصدر، وحانيةً وجهها قليلاً إلى الأمام، وكأنّها تقود سيّارة لأوّل مرّة.

سلكنا جادّة مورا وصولاً إلى أرصفة النهر. وعند انعطاف الجادّة في زاوية قائمة، قالت لي:

- سكنتُ في الماضي في هذه الناحية.

كان يجدر بي أن أسألها في أيّ فترة، وفي أيّ ظروف، لكنّني تركت الفرصة تفوتني. حين يكون الواحد شابّاً، يهمل بعض التفاصيل التي يمكن أن تصبح ثمينة فيما بعد. انعطفت الجادّة مجدّداً في زاوية قائمة، وأطلّت على نهر السين.

- ما رأيك؟ هل ترى أنّني أجيد القيادة؟

- بشكل ممتاز.

- ألست خائفاً معي؟

- لا، إطلاقاً.

ضغطت على دوّاسة البنزين. اعتباراً من رصيف لوي بليريو، كان الشارع يضيق، غير أنّها كانت تقود بسرعة متزايدة. ثمّ ضوء أحمر. خفت أن تتخطّاه، لكن لا. فرملَتْ دفعة واحدة.

- أعتقد أنّني معتادة على هذه السيّارة...

أخذت تقود بسرعة عاديّة. وصلنا إلى حدائق التروكاديرو. عبرَتْ جسر يينا، ثمّ سلكَتْ ميدان شان دو مارس[1].

- إلى أين نحن ذاهبان؟ سألتها.

- إلى فندقي. لكن قبل ذلك، أريد أن أحضر شيئاً نسيته.

كنّا في الساحة المقفرة أمام المدرسة الحربيّة. بدا المبنى المهيب مهجوراً. كنّا نحدس ميدان شان دو مارس، مثل مرج ينحدر انحداراً طفيفاً صوب نهر السين. واصلَت طريقها مباشرة. جدار ثكنة وكتلتها القاتمة. لمحْت عند

---

(1) Champ de Mars: «حقل مارس»، ميدان عامّ أخضر في باريس يمتدّ من برج إيفل إلى المدرسة الحربيّة L'Ecole Militaire. واسمه مستوحى من «ميدان مارس» في روما القديمة، الذي كان مقاماً على شرف «مارس» إله الحرب في الميثولوجيا اللاتينيّة.

طرف الشارع جسر المترو الجوّي. توقّفنا أمام مبنى في شارع ديزيه.

- هل يمكنك انتظاري؟ لن يستغرق الأمر طويلاً.

تركَت المفتاح في لوحة القيادة ودخلت المبنى. تساءلت إن كانت ستعود. بعد لحظة، خرجت من السيّارة ووقفت أمام بوّابة المبنى، بوّابة من الزجاج مزيّنة بزخارف حديديّة. ربّما هناك مدخل خلفيّ. قد تختفي وتتركني مع هذه السيّارة العديمة الفائدة. حاولت العودة إلى المنطق. فإن تخلّت عنّي، لديّ معالم يمكنني الرجوع إليها: مقهى شارع واشنطن الذي يرتاده جاك، شقّة أنسار، وخصوصاً الحقيبتان. من أين ينبع ذلك الخوف من أن تختفي؟ لم أكن أعرفها سوى منذ أربع وعشرين ساعة، ولم أكن أعرف عنها شيئاً. حتّى اسمها الأول، علمت به من أشخاص آخرين. لم تكن تلزم مكانها، بل تتنقّل من موقع إلى آخر وكأنّها تهرب من خطر مُحدِق. كان لديّ إحساس بأنّني لن أتمكّن من استبقائها.

رحت أذرعُ الرصيف. سمعت بوّابة المبنى تنغلق خلفي. توجّهَت إليّ مسرعة. لم تعد ترتدي معطفها الواقي

من المطر الذي كانت تحمله مثنيّاً على ذراعها، بل معطف من الفرو.

- كنت سترحل؟ سألتني. لم تعد تريد انتظاري؟

كانت تبتسم لي ابتسامة قلقة.

- لا، إطلاقاً. بل ظننت أنّك أنت تخلّيت عنّي.

هزّت كتفيها.

- هذه حماقة... ما الذي أوحى لك بذلك؟

كنّا نسير في اتّجاه السيّارة، وقد تناولْتُ منها معطفها الواقي من المطر وحملْتُه على كتفي.

- معطفك جميل، بادرتها قائلاً.

ارتبكَتْ.

- أجل... إنّها سيّدة أعرفها... تسكن هنا... خيّاطة... عهدت إليها بهذا المعطف من أجل أن تعيد خياطة حواشيه.

- وهل نبّهتها إلى أنّك سوف تمرّين بها في مثل هذه الساعة المتأخّرة؟

- هذا لا يزعجها... إنّها تعمل خلال الليل...

كانت تخفي عليّ الحقيقة، وكنت على وشك أن أطرح

عليها أسئلة دقيقة، لكنني تمالكت نفسي. سوف تعتاد عليّ في نهاية المطاف، وتثق بي تدريجيّاً وتعترف لي بكلّ شيء.

عدنا إلى السيّارة من جديد. وضعْتُ معطفها الواقي من المطر على المقعد الخلفيّ. انطلقت هذه المرّة بهدوء.

- فندقي على مقربة...

لماذا اختارت فندقاً في ذلك الحيّ؟ لا شكّ أنّ الأمر لم يكن من باب الصدفة. ثمّة حتماً ما يشدّها إلى هنا، رابط راسخ. ربّما وجود تلك الخيّاطة الغامضة؟

سلكنا أحد الشوارع المتفرّعة من جادّة سوفرين في اتّجاه غرونيل، عند تخوم الدّائرتين[1] السابعة والخامسة عشرة. توقّفنا أمام فندق تضيء واجهته لافتة كاراج عند منعطف الشارع. دقّت، فحضر الحارس الليليّ ليفتح لنا الباب. تبعناه إلى مكتب الاستقبال. طلبَتْ مفتاح غرفتها. كان يرمقني بنظرة مرتابة.

- هل يمكنكَ ملء بطاقة؟ إنّني بحاجة إلى وثيقة هويّة.

لم أكن أحمل جواز سفري. وفي مطلق الأحوال، كنت قاصراً.

(1) مدينة باريس مقسمّة إداريّاً إلى عشرين قطاعاً لكلّ منها بلديّة خاصّة به، وهي تسمّى «دوائر».

وضع المفتاح على منضدة الاستقبال. أخذته بحركة عصبيّة.

- إنّه شقيقي...

تردّد لحظة.

- في هذه الحال، لا بدّ من إثبات ذلك. يجب أن تقدّما لي أوراقاً ثبوتيّة.

- نسيتها، قلت.

- إذن لا يمكنني أن أدعك تصعد مع الآنسة.

- لماذا؟ طالما أنّه شقيقي...

كان يراقبنا بصمت، وذكّرني بالشرطيّ في اليوم السابق. كان المصباح يلقي ضوءه على وجهه المربّع ورأسه الأصلع. وكان هاتف موضوعاً على المنضدة. كنت أتوقّع أن يرفع السمّاعة في أيّ لحظة ويبلّغ أقرب مركز للشرطة بوجودنا.

كنّا ثنائيّاً غريباً عجيباً، ولا بدّ أنّنا كنّا نبدو مريبيَن. أذكر فكّي ذلك الرجل العريضين، فمه العديم الشفتين، والازدراء البارد في عينيه وهو يحدّق بنا. كنّا تحت رحمته. لم نكن شيئاً.

التفتّ إليها:

- أعتقد أنّني أضعت أوراقي حين تناولنا العشاء مع أمّي، قلت بصوت خجول. ربّما عثرت أمّي عليها.

شدّدت على كلمة «أمّي» لإعطائه انطباعاً مطَمْئناً أكثر عنّا. أمّا هي، فأحسَسْت بها على النقيض منّي على استعداد لمواجهة ذلك الحارس الليليّ.

كانت تقبض بيدها على المفتاح. انتزعْتُه منها بغتةً ووضعْتُه بهدوء على مكتب الاستقبال.

- تعالي... سنحاول العثور على هذه الأوراق...

جررتها من ذراعها. كان علينا أن نمشي حوالى عشرة أمتار لنصل إلى باب الفندق. كنت واثقاً من أنّ الرجل يتابعنا بنظره. لا بدّ لنا من الابتعاد بمشية طبيعيّة قدر المستطاع. الأهمّ ألّا نبدو وكأنّنا نهرب. وماذا لو أقفل الباب بالمفتاح وأوقع بنا؟ لكنّ هذا لم يحدث.

شعرت بالانفراج حين أصبحنا في الخارج. لم يعد يسع ذلك الحارس الليليّ أن يفعل شيئاً حيالنا.

- هل تريدين العودة وحيدة إلى فندقك؟

- لا، لكنّني واثقة من أنّنا لو أصررنا، لتركَنا وشأننا.

- لست واثقاً من ذلك.

- هل كنت خائفاً منه؟

كانت تتأمّلني وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة. وددت لو أعترف لها بأنّني زوّرت تاريخ ولادتي لأبدو أكبر سنّاً، وأنني لم أتخطّ الثامنة عشرة بعد.

- إذن، إلى أين نذهب؟ سألتني.

- إلى شقّتي. سنكون أفضل حالاً بكثير من الفندق.

فيما كنّا نعبر بالسيّارة جادّة سوفرين، انتابني التخوّف ذاته كما أمام الحارس الليليّ. تساءلت إن لم تكن تلك السيّارة وذلك المعطف الفرو الذي ترتديه يلفتان الانتباه أكثر إلينا. كنت أخشى أن يوقفنا عند تقاطع الطرق التالي أحد تلك الحواجز التي غالباً ما كانت الشرطة تقيمها في تلك الفترة في باريس بعد منتصف الليل.

- هل تحملين رخصتك للقيادة؟

- لا بدّ أنّها في حقيبتي، أجابتني. يمكنك إلقاء نظرة.

كانت حقيبتها موضوعة على لوحة القيادة. لم يكن فيها أغراض كثيرة وعثرت على رخصة القيادة على الفور. فكّرت في فتحها لمعرفة اسمها وعنوانها وتاريخ ولادتها

ومكانها، لكنّني امتنعت من باب اللياقة.

- وهل تعتقدين أنّ لدينا أوراق السيّارة؟

- حتماً... في مكان ما في علبة القفّازات.

هزّت كتفيها. بدت غير آبهة لجميع المخاطر التي كنت أخشاها لكلينا. شغّلت المذياع فغمرتني السكينة شيئاً فشيئاً مع الموسيقى، واستعدت ثقتي. نحن لم نرتكب أيّ شرّ. ما الذي يمكن أن يأخذوه علينا؟

- يجدر بنا التوجّه جنوباً بهذه السيّارة، قلت لها.

- ظننت أنّك تريد الذهاب إلى روما.

كنت حتّى ذلك الحين أتخيّل القيام بتلك الرحلة إلى روما في القطار. لكنّني صرت عندها أحاول تصوّر مسارنا برّاً: سوف نذهب أوّلاً إلى الجنوب. ثمّ نعبر الحدود في فينتيميلّي. يكفي أن يحالفنا الحظّ قليلاً، وسوف تسير الأمور على ما يرام. وبما أنّني قاصر، سأكتب بنفسي رسالة تحمل توقيع والدي، تجيز لي القيام برحلة إلى الخارج. كنت معتاداً هذا النوع من التزوير.

- هل تعتقدين أنّهم سيعيروننا السيّارة؟

- طبعاً... ولم لا؟

كانت تمتنع عن إعطائي إجابة واضحة حاسمة.

- الواقع أنّكِ لا تعرفينهم منذ فترة طويلة جدّاً...

بقيَتْ صامتة. فعاودْتُ إثارة الموضوع.

- جاك ذاك، هل تعرّفت عليه عن طريق أنسار؟

- أجل.

- لكن ما هو عمل جاك؟

- إنه شريك أعمال لأنسار.

- وأنسار، كيف تعرّفت عليه؟

- في مقهى.

ثمّ أضافت:

- جاك يقطن شقّة رائعة في شارع واشنطن. اسمه جاك دو بافير[1]...

كثيراً ما سمعتها في ما بعد تردّد هذا الأسم: جاك دو بافير. هل كنت أسمع جيّداً؟ ألم يكن اسماً أقلّ رقيّاً، مثل دو بافييه، أو دوبافار؟ أو بكلّ بساطة اسماً مستعاراً؟

- إنّه بلجيكيّ، لكنّه عاش طوال حياته في فرنسا. يقيم

---

(1) De Bavière عائلة مالكة أوروبيّة متحدرة من عائلة فيتلسباخ الألمانية العريقة، حكمت دوقيّة بافاريا.

مع زوجة أبيه في شارع واشنطن.

- زوجة أبيه؟

- أجل، أرملة والده.

وصلنا في تلك الأثناء إلى جسر الكونكورد. وبدل أن تسلك جادّة سان جيرمان، عبرت نهر السين.

- أفضّل السّير بمحاذاة أرصفة النهر، قالت.

- جاك دو بافيير ذاك... يبدو لي أنّه مغرم بك...

- ربّما، لكنّني لا أريد أن أقيم معه. أريد الحفاظ على استقلاليّتي.

- تفضّلين البقاء في سان لو لافوريه؟

قلتها بنبرة ساخرة، وكأنّني لا أؤمن بوجود ذلك المنزل في سان لو لافوريه.

- من حقّي أن يكون لي حياتي الخاصّة بي...

- يجدر بك اصطحابي ذات يوم إلى سان لو...

ابتسمَت.

- أنت تهزأ بي؟

- لا، إطلاقاً. بودّي حقّاً رؤية منزلك...

- لكنّني للأسف لم أعد أسكن فيه منذ أمس... وأنت

تعرف ذلك جيّداً...

جسر بون نوف. كنّا نتبع الطريق ذاتها التي سلكناها في اليوم السابق مشياً. ركنت السيّارة في امتداد رصيف كونتي، عند زاوية الطريق المسدود.

كان هناك ضوء خلف نوافذ المكتب والغرفة الملاصقة له. لن نتمكّن هذه المرّة من الإفلات من غرابلي، ولم أكن مرتاحاً لذلك الأمر. قلت لها:

- سنمشي على رؤوس أقدامنا.

لكن في اللحظة التي كنّا نعبر فيها ردهة المدخل في العتمة، فتح غرابلي باب الغرفة المجاورة للمكتب.

- مَن هنا؟ هذا أنت أوبليغادو؟

كان يرتدي مبذله ذا المربّعات الاسكتلنديّة.

- بوسعك أن تعرّفني عليها...

- جيزيل، قلت بنبرٍ متردّد.

- هنري غرابلي.

اقترب منها، مادّاً لها يده ولكنّها لم تصافحه.

- تشرّفت بمعرفتك. عذراً لاستقبالك في مثل هذا المظهر.

كان يلعب دور صاحب البيت. إنّ شخصه بكامله كان، والحقّ يقال، ينسجم كليّاً مع تلك الشقّة الفارغة...

- السيّد غرابلي صديق لوالدي، قلت لها.

- أقْدَم أصدقائه.

كان يشير لنا بأن ندخل تلك الغرفة المجاورة للمكتب، غرفة لم يكن لها يوماً أيّ وجهة استخدام محدّدة، فكانت تقوم أحياناً مقام صالون، حيث كانت في ما مضى مفروشة بأريكة من المخمل الأزرق الليليّ وكنبتين بمساند من اللّون ذاته وطاولة خفيضة، وأحياناً أخرى تُستخدم «غرفةَ ضيوف».

كانت النوافذ العديمة الستائر تطلّ على رصيف النهر.

- سئمتُ منظر فناء المبنى، فانتقلتُ إلى هنا. هل تأذن لي بذلك أوبليغادو؟

- اعتبر نفسك في بيتك.

سبقَنا إلى دخول الغرفة، لكنّنا بقينا معاً عند الباب. كان فراش موضوعاً أرضاً في الزاوية اليسرى. والنور ينبعث من مصباحٍ عارٍ، «لمبة» مثبّتة على قاعدة. لم يعد هناك أيّ قطعة أثاث. وعلى الموقد الرخام، الحقيبة من

المشمّع الأسود التي كان غرابلي يحملها أحياناً في الصباح للتبضّع، والمذياع الضخم.

- هل تفضّلان أن ننتقل إلى المكتب؟

كان يحدّق بها وهو يبتسم مزهوّاً بنفسه، رافعاً رأسه قليلاً.

- أنت فاتنة، آنستي...

لم تبدِ أيّ ردّ فعل على تلك الملاحظة، لكنّني كنت أخشى أن تغادر بسببه.

- آمل ألّا تكوني مستاءة من صراحتي، آنستي؟

كان صمتنا يربكه. التفت صوبي.

- لا يسعني الاتّصال بوالدك. لا أحد يجيب على رقم الهاتف الذي تركه لي.

لم يكن ذلك مدهشاً البتّة. كان بوسعي حتّى أن أتصوّر الرقم يرنّ إلى الأبد في الفراغ.

- ما عليك إلّا أن تصرّ، أجبته. لا بدّ أن يجيب أحدهم في النهاية.

ها هو يبدو حائراً قليلاً، واقفاً هناك أمامنا، مثل بائع خردة جوّال عجز عن إقناع جمهوره.

- ما رأيكما لو نتناول العشاء معاً نحن الثلاثة غداً؟

- لا أدري إن كانت جيزيل متفرّغة.

كنت أنظر إليها، مستجدياً دعمها.

- أشكرك كثيراً سيّدي، لكنّني لن أكون في باريس مساء غد.

كنت ممتنّاً لها لمخاطبتها إيّاه بتلك النبرة اللبقة، لأنّني خفت في البدء أن تجيبه بجفاء. شعرت فجأة بالشفقة حيال غرابلي، بشاربيه الأشقرين وحقيبته للتبضّع فوق الموقد، وحيال والدي الهارب... أسترجِعُ اليوم ذلك المشهد عن مسافة. يتراءى لي من خلف زجاج نافذة، في نور كامد، رجل خمسينيّ أشقر يرتدي مبذلاً ذا مربّعات إستكلنديّة، وفتاة في معطف من الفرو، وشابّ... المصباح العاري على قاعدته صغير جدّاً وضعيف جدّاً. لو أعدت عقارب الساعة ورجعت الى تلك الغرفة ذاتها، لتمكّنت من تبديل المصباح. لكنْ في نور حادّ، قد يتبدّد المشهد برمّته.

*

كانت ممدّدة لصقي في غرفة الطابق الخامس. كنت

أسمع أنغام موسيقى وصوتاً رتيباً، صوت مذيع.

في الأسفل، كان غرابلي يستمع إلى المذياع.

- يبدو غريب الأطوار، ذلك الرجل، قالت لي. ما هو عمله؟

- آه! مزيج من كلّ الحرف إذا أمكن القول.

عثرْت ذات يوم على محفظة نسيها في المكتب. اكتشفت بين الأوراق التي كانت تحويها ورقة قديمة جدّاً فاجأتني: طلب إدراج في السجلّ التجاريّ بصفة بائع فاكهة وخضار في سوق رانس.

- ووالدك؟ أهو من الصنف ذاته من الرجال؟

كانت هذه أوّل مرّة ترفع الكلفة بيننا وهي تكلّمني.

- لا، ليس تماماً...

- هل رحل إلى سويسرا لأنّه كان يواجه متاعب في فرنسا؟

- أجل.

لم يبدُ عليها أنّها تستغرب كثيراً كلّ ذلك.

- وأنتِ؟ هل لديك عائلة؟ سألتها.

- ليس تماماً.

كانت تنظر في عينيّ وهي تبتسم.

- لديّ شقيق يدعى لوسيان...

- لكن ما هو عملك؟

- مزيج من كلّ الحرف إذا أمكن القول...

قطّبَت، وكأنّها تبحث عن كلماتها. ثمّ قالت بعد لحظة: «كنت حتّى متزوّجة في ما مضى».

تظاهرْتُ بأنّني لم أسمع. فأدنى كلمة، أدنى إيماءة قد تقطع خيط أسرارها هذا. لكنّها عادت إلى صمتها، محدّقة في السقف.

كانت انعكاسات تنزلق على الجدران. أشكالها وحركتها توحي بأوراق أشجار ترتعش في الريح، باعثةً حفيفاً. كان ذلك آخر مركب نهريّ يعبر، مسلّطاً نورَ كشّافاته على واجهات المباني على طول الأرصفة.

اليوم التالي كان يوم سبت. كانت الشمس ساطعة والسماء زرقاء صافية، خلافاً للغيوم المتلبّدة والأجواء المكفهرّة التي خيّمت في اليوم السابق. على رصيف النهر، كان أحد باعة الكتب المستعملة فتح خزانته. أحسست وكأنّه يوم عطلة، إحساس راودني في ما مضى، في أيّام السبت النادرة حين كنت أستيقظ داخل الغرفة ذاتها، لأكتشف بدهشة أنّني بعيد عن مهجع المدرسة.

بدت في ذلك الصباح أكثر انشراحاً من اليوم السابق. فكّرْتُ في رحيلنا قريباً إلى روما، وقرّرت أن أتزوّد بأسرع ما أمكن بخارطة لتلك المدينة. ثمّ سألتها إن كانت تودّ الذهاب في نزهة إلى غابة بولونيا.

وجدتُ رسالة قصيرة تركها لي غرابلي في المكتب:

عزيزي أوبليغادو،

إنّني مضطرّ مرّة جديدة للعودة إلى جادّة أوسمان للتخلّص من باقي الأوراق التي تركها والدك هناك. هذا المساء، سأقوم بـ «جولتي». إن كنت ترغب في الانضمام إليّ مع صديقتك، أمكننا أن نلتقي في الساعة الثامنة في مقهى ليه دو ماغو. هذه الفتاة فاتنة حقّاً... حاول إقناعها بالمجيء... سيسرّني أن أقدّم لك خلال هذه الأمسية فتاة لا بأس بها أيضاً.

هـ.غ.

أرادت أن تتحقّق من أنّ الحقيبتين كانتا لا تزالان في حجرة المهملات. ثمّ شرحَت لي أنّ عليها أن تُحضر شيئاً ما قبل حلول الظهر من ناحية رصيف باسّي. كان ذلك يناسبنا، إذ كان الرصيف على الطريق إلى غابة بولونيا.

عند دخول السيّارة، طلبْتُ منها أن تنتظرني لحظة، وتوجّهت مهرولاً إلى خزانة بائع الكتب المستعملة على السّين. عثرت في صفّ كتب الرحلات والجغرافيا، على

دليل قديم لروما، وبدت لي تلك الصدفة فاتحة خير.

صرنا معتادين على تلك السيّارة، وبدا لي حتّى أنّها لطالما كانت لنا. كان السير خفيفاً جدّاً في صباح يوم السبت ذاك، وكأنّنا في إحدى فترات العطلة، حيث يغادر معظم الباريسيّين مدينتهم. انتقلنا إلى الضفّة اليمنى عبر جسر الكونكورد. كانت الأرصفة مقفرة أكثر في هذا الجانب من السين. بعد حدائق التروكاديرو، توقّفنا عند زاوية شارع ألبوني، تحت جسر المترو الجوّي.

طلبَتْ منّي أن أتركها. وحدّدت لي موعداً بعد ساعة في المقهى، على رصيف النهر.

التفتَت إليّ ولوّحت لي بذراعها.

تساءلت إن لم تكن ستختفي نهائيّاً. بالأمس، كان لديّ مرجع: رأيتها تدخل مبنىً. أمّا في تلك اللّحظة، فلم تشأ حتّى أن أرافقها إلى وجهتها. لم أكن واثقاً من أيّ شيء معها.

فضّلْتُ أن أمشي على أن أبقى مسمّراً بلا حراك، جالساً في انتظارها في المقهى، فتسكّعت في الشوارع المحيطة سالكاً الواحد تلو الآخر، وعلى الأدراج المحاطة

بدرابزين ومصابيح. عدت أحياناً كثيرة فيما بعد إلى هذه الناحية، وفي كلّ مرّة، كانت أدراج شارع ألبوني تذكّرني بيوم السبت، حين مشيتُ وأنا أنتظرها. كان ذلك في شهر نوفمبر، لكنْ في ذاكرتي يتراءى لي الحيّ غارقاً في نور صيفيّ، بسبب الشمس التي كانت تشعّ في ذلك النهار. بقع شمس على الأرصفة، وفيء تحت جسر المترو الجويّ. وممرّ ضيّق ومعتم كان في ما مضى درباً في حقل، يصعد بين المباني حتّى شارع رينوار. في الليل، عند الخروج من محطّة باسّي، تلقي مصابيح الشارع نوراً شاحباً على أوراق الأشجار.

أردت قبل بضعة أيّام أن أتفقّد تلك المواقع للمرّة الأخيرة. وصلت إلى منطقة المباني الإداريّة الصغيرة على ضفّة السين. كانوا يهدمون القسم الأكبر منها. تلال من الركام، وجدران محطّمة، كأنّما بعد قصف. كانت الجرّافات تعمل في حركة بطيئة على إزالة الحطام. التففت من شارع شارلز ديكنز عائداً أدراجي. تساءلت أين يمكن أن يكون العنوان الذي قصدَتْه في يوم السبت ذاك. كان حتماً في شارع شارلز ديكينز. حين افترقنا، رأيتها تنعطف يساراً،

وبعد ساعة، كنت أهمّ بالتوجّه إلى المقهى الذي تواعدنا فيه، على رصيف النهر. كنت أمشي على رصيف شارع فريميه في اتّجاه السين، حين سمعت مَن يناديني باسمي. التفتّ، وإذا بها تتقدّم صوبي، وهي تجرّ كلباً أسود من فصيلة اللابرادور.

*

هزّ الكلب ذيله عند رؤيتي وانتصب مُسنِداً قائمتيه الأماميّتين على أعلى ساقيّ. رحت أداعبه.

- غريب... وكأنّه يعرفك.

- هذا الكلب لك؟ سألتها.

- أجل، لكنّني عهدت به إلى أحدهم لأنّه لم يكن بوسعي الاعتناء به في الفترة الأخيرة.

- ما اسمه؟

- ريمون.

بدت في غاية السرور لاستعادتها الكلب.

- والآن؟ هل ما زال عليكِ الذّهاب لإحضار شيء؟

- لا، ليس في الوقت الحاضر.

كانت تبتسم لي. ربّما لاحظتْ أنّني كنت أسخر منها برفق. الحقيبتان، المعطف الفرو، الكلب... اليوم أفهم بشكل أفضل تلك التنقّلات ذهاباً وإياباً، سعياً لجمع أجزاء حياة مشتّتة.

اندفع الكلب داخل السيّارة وتمدّد على المقعد الخلفيّ وكأنّه مكانه المعتاد. قالت لي إنّه، قبل الذهاب إلى غابة بولونيا، عليها المرور بمنزل أنسار. كانت تريد أن تسأل جاك دو بافيير إن كان بوسعنا الاحتفاظ بالسيّارة. كان أنسار وجاك دو بافيير يقضيان على الدوام يوم السبت معاً، إمّا في شقّة أنسار أو في مطعمه. فأولئك الناس لهم عاداتهم، وها أنّني صرت نوعاً ما جزءاً من الشلّة، من غير أن أدري السبب بالضبط. كنت ذلك المسافر الذي يصعد في قطار أثناء سيره، ويجد نفسه برفقة أربعة غرباء. فيتساءل إن لم يكن أخطأ القطار. لكن لا يهمّ... الآخرون حوله يبادرون بالتحدّث إليه.

التفتُّ نحو الكلب.

- وريمون؟ هل يعرف أنسار وجاك دو بافيير؟

- أجل، يعرفهما.

قهقهَتْ بالضحك. رفع الكلب رأسه ونظر إليّ ناصباً إحدى أذنيه.

كان الكلب معها حين التقت بهما لأوّل مرّة. كانت لا تزال آنئذ تقطن في سان لو لافوريه. الناس الذين عهدت إليهم بالكلب لاحقاً، كانوا يملكون منزلاً قرب سان لو لافوريه وشقّة في باريس. وهم جلبوا لها الكلب في ذلك اليوم إلى باريس.

كنت أتساءل إن كان بوسعي أن أصدّقها. فشرْحها بدا لي مسهباً أكثر ممّا ينبغي وغير مكتمل في آنٍ، وكأنّها تخفي الحقيقة خلف فيض من التفاصيل. لماذا بقيَت هناك ساعة كاملة إن كانت الغاية تقتصر على الذهاب لجلب كلب؟ ولماذا لم تشأ أن أرافقها؟ ومن كان أولئك الناس؟

فكّرت في أنْ لا جدوى من طرح هذه الأسئلة عليها. فلم أكن أعرفها سوى منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. يكفي أن تقوم علاقة حميمة بيننا بضعة أيّام، حتّى تنهار الحواجز بيننا. وقريباً سوف أعرف كلّ شيء.

توقّفنا أمام المبنى في شارع رافّيه وعبرنا الفناء. لم تربط الكلب بِزمامه، غير أنّه كان يتبعنا بوداعة. فتحت لنا

مارتين، الفتاة الشقراء، الباب. قبّلت جيزيل، ثمّ قبّلتني أنا أيضاً. فاجأتني بادرة الألفة تلك.

كان أنسار وجاك دو بافيير جالسين معاً على الأريكة، ينظران إلى صور كبيرة الحجم، كان بعضها مبعثراً عند أقدامهما على الموكيت. لم يفاجئهما وصولنا. قفز الكلب على الأريكة واحتفى بهما.

- اذن، هل أنت مسرورة لاستعادة كلبك؟ سأل جاك دو بافيير.

- في غاية السرور.

راح أنسار يجمّع الصور ويضعها على الطاولة الخفيضة.

- لم تواجهي أيّ مشاكل مع السيّارة؟ استفهم جاك دو بافيير.

- لا، إطلاقاً.

- اجلسا دقيقتين، قال أنسار بلكنة الضواحي الطفيفة الخاصّة به.

جلسنا على الكنبتين واقترب الكلب وتمدّد أمام جيزيل. جلست مارتين أرضاً بين جاك دو بافيير وأنسار، مسندةً ظهرها إلى حافّة الأريكة.

- كنت أودّ أن أسألك إن كان بوسعنا الاحتفاظ بالسيّارة لبعض الوقت، قالت جيزيل.

ابتسم جاك دو بافيير ابتسامة ساخرة.

- بالطبع، يمكنك الاحتفاظ بها قدر ما تشائين.

- ولكن بشرط وحيد... قاطعه أنسار.

كان يرفع إصبعه طالباً انتباهنا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وكأنّه على وشك التفوّه بطرفة مضحكة.

- بشرط أن تسديا لي خدمة...

تناول سيجارة من العلبة الموضوعة على الطاولة الخفيضة، وأشعلها بعصبيّة بولّاعة. كان ينظر مباشرة في عينيّ، وكأنّه يتوجّه بكلامه إليّ، وكما لو كانت جيزيل مطّلعة نوعاً ما على المسألة.

- اسمعا... الأمر بسيط جدّاً... يكفي أن تقوما بمهمّة رسولَين لي...

كان جاك دو بافيير ومارتين يتأمّلان الكلب الجالس بلا حراك في وضعيّة أبي الهول عند قدمَي جيزيل، لكنّني تصوّرت أنّهما كانا يسعيان بذلك إلى إخفاء اضطرابٍ يخالجهما، وتفادي أن تتلاقى نظراتنا. ربّما كانا يخشيان أن

يصدمني اقتراح أنسار.

«المسألة ليست معقّدة... غداً بعد الظهر، تذهبان إلى مقهى أحدّده لكما... تنتظران أن يدخل المقهى رجلٌ معيّن...»

تناول إحدى الصور عن الطاولة الخفيضة وعرضها لنا من مكانه. كان وجه رجلٍ أسمر في حوالى الأربعين من العمر. لم تُبدِ جيزيل أيّ دهشة لهذا العرض، لكنّ أنسار شعرَ حتماً بريبتي، فانحنى صوبي:

- اطمئنّ، ليس في المسألة أيّ شيء خارج عن المألوف... هذا الرجل تربطني به علاقة عمل... حين يجلس إلى طاولة، يتقدّم أحدكما إليه ويقول له ببساطة: السيّد بيار أنسار في انتظارك في السيّارة، عند زاوية الشارع...

ابتسم من جديد، ابتسامة عريضة مثل ابتسامة طفل. الواقع أنّ وجهه كان يوحي بالصدق.

وددت معرفة رأي جيزيل. انحنت وتناولت الصورة التي وضعها أنسار على الطاولة الخفيضة. رحنا نتأمّلها. كانت أشبه بصورة بطاقة هويّة تمّ تكبيرها. وجه سويّ

القسمات، وشعر أسود مسرّح إلى الخلف، وجبين عريض.

كانت مارتين وجاك دو بافيير أيضاً يستعرضان الصور الأخرى التي يظهر فيها الرجل ذاته من زوايا مختلفة، وحيداً أو برفقة آخرين.

- وما هو النشاط الذي يزاوله؟ سألت بصوت خجول.

- مهنة مشرّفة تماماً، ردّ أنسار دون أن يعطي المزيد من التوضيحات. إذن تنتظران وصول هذا الرجل وتنقلان إليه رسالتي... سيحصل هذا في نويّي[1]، على مقربة من غابة بولونيا.

- وبعد ذلك؟ سألت جيزيل.

- بعد ذلك، لكما مطلق الحريّة. وبما أنّه ليس من عاداتي أن أجعل الآخرين يعملون لحسابي مجّاناً، فسأقدّم لكلّ منكما ألفي فرنك لقاء هذه المهمّة المزعجة.

- شكراً، أجبته، لكنّني لست بحاجة إلى مال.

- هذا كلام أحمق يا صغيري. في سنّك، يحتاج الواحد دوماً إلى المال...

(1) Neuilly-sur-Seine بلدة في ضاحية باريس الغربيّة.

كانت نبرته أبويّة، ونظرته فيها من الرقّة والحزن ما بعث فيّ فجأة إحساساً بالعطف حيال ذلك الرجل.

سطعت الشمس طوال العصر، لكنّنا كنّا في تلك الفترة من السنة التي يهبط فيها اللّيل قرابة الساعة الخامسة. أصرّ أنسار على أن نذهب لتناول الغداء في مطعمه. كان يقع على مسافة ضئيلة إلى شمال الدائرة السادسة عشرة، في شارع ليه بيل فوي. صعد أنسار وجاك دو بافيير ومارتين في سيّارة سوداء، وتبعناهم عبر شوارع يوم السبت المقفرة.

- هل تعتقدين أنّ بوسعنا أن نسدي له الخدمة التي طلبها؟ سألْتُ جيزيل.

- هذا لا يلزمنا بشيء...

- لكن عدا ذلك المطعم، ألا تعلمين أيّ صنف من العمل يزاول؟

- لا.

- سيكون من المثير للاهتمام أن نعرف...

- هل تعتقد ذلك؟

هزّت كتفيها. لحقنا بهم عند ضوء أحمر في جادّة سوشيه. وقفت السيّارتان جنباً إلى جنبٍ تنتظران. كانت مارتين جالسة على المقعد الخلفيّ، وابتسمت لنا. أمّا أنسار وجاك دو بافيير، فكانا مستغرقين في حديث بالغ الجديّة. نفض جاك دو بافيير رماد سيجارته بحركة من سبّابته من النافذة المفتوحة إلى نصفها.

- هل سبق أن ذهبْتِ إلى مطعمه؟

- أجل، مرّتين أو ثلاث مرّات. الواقع أنّني لا أعرفهم منذ وقت طويل...

لم تكن تعرفهم في الحقيقة سوى منذ ثلاثة أسابيع. لم يكن أيّ شيء يربطنا بهم بصورة نهائيّة، إلّا إذا كانت تخفي عليّ أمراً ما. سألتها إن كانت تعتزم الاستمرار في مخالطتهم. روت لي أنّ جاك دو بافيير كان في غاية اللّطافة معها وأنّه أسدى لها خدمة منذ لقائهما الأوّل. حتّى أنّه أقرضها مبلغاً من المال.

- ألم تستجوبك الشرطة بسببهم منذ بضعة أيّام؟

خطرت لي تلك الفكرة فجأة.

- لا، أبداً...

قطّبَتْ ورمقتني بنظرة متكدّرة.

- إيّاك أن يعرفوا أنّني خضعت لاستجواب...

كانت أوصتني بذلك في اليوم الماضي، من غير أن توضّح لي المزيد.

- لماذا؟ هل أنّ ذلك قد يعرّضهم لمتاعب؟

ضغطَتْ بقدمها على دوّاسة البنزين. انتصب الكلب على المقعد الخلفيّ ووضع رأسه في غور كتفي.

- استدعوني إلى هناك لأنّهم عثروا على اسمي في سجلّ فندق. لكن في مطلق الأحوال، كنت سأذهب من تلقاء نفسي لمقابلتهم...

- لماذا؟

كنّا تجاوزنا سيّارة أنسار وجاك دو بافيير. كنّا ننطلق بسرعة كبيرة وبدا لي أنّنا تخطّينا ضوءاً أحمر. كنت أحسّ بلهاث الكلب على عنقي.

- تركت زوجي فأرسل من يبحث عنّي. في الأشهر الأخيرة التي قضيتها معه، كان يهدّدني باستمرار...

أبلغتُ الشرطة بكلّ شيء...

- كنت تعيشين معه في سان لو لافوريه؟

- لا.

أجابتني بجفاء. فهي ندمت على الفور على بوحها لي بهذا السرّ. جازفْتُ وطرحت سؤالاً آخر:

- أيّ صنف من الرجال هو زوجك؟

- آه... مجرّد رجل كسائر الرجال...

أدركْتُ أنّني لن أنتزع منها أيّ اعترافات جديدة لحظتئذٍ. في تلك الأثناء، كان الآخرون لحقوا بنا. انحنى جاك دو بافيير من النافذة المفتوحة وصاح:

- هل تظنّان أنّكما في سباق «لو مان 24 ساعة»؟

تجاوزوا سيّارتنا، ثمّ أبطأوا. حذت حذوهم. كنّا الآن نسير خلفهم، على مسافة لصيقة، وكانت السيّارتان تكادان تتلامسان.

- ربّما يمكننا بعد الغداء الذهاب في نزهة أنا وأنت معاً في غابة بولونيا؟ اقترحت عليها.

- بالطبع... لسنا ملزمين بالبقاء معهم...

أحسست بالسعادة لسماع ذلك. كنت أشعر بنفسي

مرهوناً بالبالغين وبطيب خاطرهم. المدرسة التي بقيت فيها ستّ سنوات والتهديد الدّاهم بالالتحاق بالجيش كانا يعطيانني الانطباع بأنّني إنّما أسلب كلّ لحظة حريّة أعيشها، وكأنّني أحيا خلسة.

- صحيح... لسنا ملزمين بأيّ شيء تجاههم...

أضحكتها تلك الملاحظة. كان الكلب لا يزال يلهث على عنقي، وبين الحين والآخر، يلعق أذني بلسانه الخشن.

كان المطعم يحمل اسم الشارع: ليه بيل فوي[1].

قاعة صغيرة. تلبيسات خشبيّة فاتحة اللّون. منضدة شرب من خشب الماهوغاني. طاولات مكسوّة بشراشف بيضاء، ومقاعد من القماش المشمّع الأحمر.

حين دخلنا، كان هناك ثلاثة زبائن يتناولون الغداء. استقبلنا النادل، رجل أسمر في حوالى الخامسة والثلاثين من العمر، كانوا ينادونه باسم ريمي. قادنا إلى إحدى الطاولات في آخر القاعة. لم تخلع جيزيل معطفها الفرو.

- هل تعتقد أنّ لديهم ما يمكن إطعامه للكلب؟

سألَتْ أنسار.

- بالتأكيد.

(1) Les Belles Feuilles: الأوراق الجميلة.

نادى ريمي واخترنا جميعاً الطبق اليوميّ. نهض أنسار وتوجّه إلى طاولة الزبائن. حادثهم بكثير من اللّباقة. ثمّ عاد وانضمّ إلينا.

- إذن؟ ما رأيك بمحلّي؟ سألني وعلى وجهه ابتسامته العريضة.

- يعجبني كثيراً.

- كان في ما مضى مقهى ومحلّ فحم[1] كنت أرتاده وأنا في سنّك، أثناء الحرب. لم يكن من الممكن أن يخطر لي آنذاك أنّني سوف أحوّله في أحد الأيّام إلى مطعم.

كان على استعداد ليخبرني بأسراره. أكان ذلك بسبب طبعيَ الخجول؟ أم بسبب عينيّ المحدّقتين بترقّب؟ أو ربّما سنّي التي تبعث فيه ذكريات؟

- اعتباراً من اليوم، لديكما طاولة في تصرّفكما هنا.

- شكراً.

كان جاك دو بافيير ذهب إلى البار ليجري اتّصالاً هاتفيّاً. كان واقفاً خلف المنضدة، وكأنّه سيّد المكان.

(1) Café-charbon: محلّات كانت قديماً تقدّم القهوة والخمر وتبيع الفحم في آن، وكانت تتركّز في مناطق محدّدة من باريس.

- زبائني في غاية الهدوء، قال أنسار. سكّان من الحيّ...
- أنتِ أيضاً تهتمّين بالمطعم؟ سألْتُ مارتين.
- ساعدتني قليلاً فقط في الديكور.

وضع يده بحنان على كتفها. كان بودّي أن أعرف بأيّ مناسبة التقيا، وكيف تعارف أنسار وجاك دو بافيير أيضاً. كان أنسار يكبره بما لا يقلّ عن عشر سنوات. تصوّرته في سنّي، ذات مساء من شهر نوفمبر، يدخل ذلك المقهى الذي لم يكن يسمّى بعد «ليه بيل فوي». ما الذي كان يفعله في تلك الفترة في الحيّ؟

*

بعد انتهاء الغداء، وقفنا قليلاً نتجاذب أطراف الحديث على الرصيف. أخبرَتهم جيزيل بأنّنا سنصطحب الكلب في نزهة في الغابة. كان أنسار يريد أن يقلّ جاك دو بافيير إلى منزله، في شارع واشنطن. قلنا لهم أنْ لا داعي لذلك، وإنّ بوسع جاك دو بافيير استعادة سيّارته. لكنّه رفض وأصرّ على تركها لنا. كان ذلك غاية في اللّطف من جانبه. سألْتُ أنسار في أيّ ناحية من نويّي يتحتّم علينا إتمام

مهمّتنا العجيبة في مساء اليوم التالي.

كان ذلك في شارع لا فيرم، عند تخوم الغابة.

- تريدان تفقّد المكان؟ أنتما على حقّ. فذلك أضمن. من الأفضل رصد كلّ مخارج الطوارئ مسبقاً.

ربّت على كتفي، وعلى وجهه ابتسامته البشوش.

عندما تخطّينا بوّابة دوفين، سلكنا الطريق المؤدّي إلى البحيرات وركنّا السيّارة أمام البافيون روايال[1]. كان ذلك في عصر يوم سبت مشمس من نهايات الخريف، مثل أيّام السبت في طفولتي، حين كنت أصل في الساعة ذاتها إلى الموقع ذاته، مستقلّاً الحافلة 63 التي كانت تتوقّف عند بوّابة لا مْويت. كان هناك في تلك الساعة حشد عند شبّاك التذاكر لاستئجار القوارب.

مشينا على طول ضفّة البحيرة. فكّت جيزيل زمام الكلب الذي راح يهرول في الممرّ أمامنا. وحين يبتعد أكثر ممّا ينبغي، تناديه: ريمون! فيستدير ويعود أدراجه على الفور. تجاوزنا الجسر العائم الذي ينطلق منه الزورق

(1) Pavillon Royal: منتجع مطلّ على بحيرة غابة بولونيا، يتضمّن صالات حفلات وحدائق.

متوجّهاً إلى مطعم لو شاليه ديزيل.

- هل أنّنا مضطرّان إلى ملاقاتهم لاحقاً؟

رفعت رأسها صوبي وحدّقت فيّ بعينيها الزرقاوين الشاحبتين.

- من الأفضل أن نفعل، قالت. بوسعهم مساعدتنا... ثمّ إنّهم أعارونا السيّارة.

- هل تعتقدين حقّاً أنّه يجدر بنا الموافقة على القيام بما طلبوه منّا؟

- هل أنت خائف؟

كانت تمسك بذراعي، ونحن نسير في الممرّ الذي راح يضيق أكثر فأكثر، عابراً بين الأشجار.

- إن أسدينا معروفاً لبيار، فسيكون بوسعنا أن نطلب منه ما نشاء. الحقيقة أنّ بيار طيّب للغاية...

- أن نطلب منه ماذا على سبيل المثال؟

- أن يساعدنا في هذه الرحلة إلى روما.

لم تنسَ المشروع الذي كلّمتُها عنه. كنت أحتفظ بدليل روما في أحد جيوبي، وقد تصفّحتُه مراراً.

- أنا أيضاً سأكون أفضل حالاً في روما، قالت.

وددت لو تشرح لي وضعها بالكامل.

- لكن ما الذي يجري بالضبط مع زوجك؟

توقّفَتْ عن المشي. كان الكلب تسلّق المنحدر على حافّة الممرّ، وأخذ يشتمّ جذوع الأشجار. راحت تشدّ أكثر على ذراعي.

- إنّه يحاول العثور عليّ، لكنّه لا يفلح في الوقت الحاضر. رغم ذلك، أخشى على الدوام أن ألتقيه بالصدفة.

- هل هو في باريس؟

- بين الحين والآخر.

- هل أنسار وجاك دو بافيير على علم بالأمر؟

- لا. لكن علينا مراعاتهما. فهما قادران على حمايتي منه.

- وما هي وظيفته؟

- آه... حسبَ الأيّام...

كنّا وصلنا إلى تقاطع كارفور دي كاسكاد، فأكملنا السير بمحاذاة الضفّة الأخرى للبحيرة. لم تخبرني المزيد عنها، عدا أنّها تزوّجت في سنّ التاسعة عشرة، وأنّ زوجها يكبرها سنّاً. اقترحْتُ عليها أن نمرّ بالسيّارة في الموقع

الذي حدّده لنا أنسار للقيام بمهمّتنا.

مررنا مباشرةً عبر الغابة وصولاً إلى أطراف نويّي، وسلكنا شارع لا فيرم. كان الموعد محدّداً في مطعم عند زاوية شارع لونشان. كانت أشعّة الشمس الأخيرة تصبغ الأرصفة، مستمهلةً المساء.

اعتراني شعور غريب لوجودي في تلك الناحية. كنت أعرف جيّداً ذلك الحيّ. تردّدت عليه في الماضي مع والدي وأحد أصدقائه، ثمّ ارتدتُه مع شاريل وكارفيه، رفيقين من المدرسة. لم أصادف أيّ متنزّه في شارع لا فيرم، وبدا ميدان ركوب الخيل مغلقاً.

*

كان الليل هبط حين عدنا إلى منزل أنسار. وجدناه جالساً مع جاك دو بافيير على الأريكة الحمراء، كما في المرّة الأولى. أحضرَتْ مارتين من المطبخ صينيّة عليها شاي وكعك.

كانت الصور لا تزال على الطاولة الخفيضة. تناولْتُ واحدة عشوائيّاً، لكنّها كانت تلك التي سبق أن رأيتها.

- هل تعتقد أنّنا سنتمكّن من التعرّف عليه؟ سألْتُ أنسار.

- أجل، بالطبع. من الأرجح أنّ المقهى لن يكون مكتظّاً مساء غد... وهاكُما تفصيلاً سيلفت انتباهكما على الفور: فذلك الشخص سيكون حتماً مرتدياً سروالاً لركوب الخيل.

أخذتُ نفساً عميقاً لاستجماع شجاعتي وسألته:

- لكن لماذا لا تذهب بنفسك إلى ذلك المقهى؟

رمقني أنسار بنظرته الحزينة الرقيقة تلك المتباينة مع ابتسامته العريضة.

- سوف تفهم المشكلة حالاً: ليس هناك موعد بيني وبين ذلك الرجل مساء غد... ستكون مفاجأة له...

- مفاجأة سارّة؟

لم يردّ على سؤالي. أعتقد أنّه لو لم يكن ينظر إليّ بنظرته الرقيقة، لأحسستُ ببعض القلق. صبّت لنا مارتين الشاي. وأسقط أنسار في كلّ من فنجانينا أنا وجيزيل قطعة سكّر تناولها بين إبهامه وسبّابته.

- لا تقلق، قال جاك دو بافيير وهو يتأمّل ساهماً إحدى

الصور. إنه مقلب طريف ندبّره له...

لم أقتنع تماماً بالأمر، لكنّ جيزيل بجانبي بدت وكأنّها تجد كلّ ذلك طبيعيّاً. كانت تحتسي كوب الشاي بجرعات صغيرة. وناولتِ الكلب قطعة سكّر.

- وهل أنّ ذلك السيّد يركب الخيل؟ سألت لأقطع الصّمت المخيّم.

هزّ جاك دو بافيير رأسه إيجاباً.

- تعرّفت عليه في ميدان فروسيّة في شارع لا فيرم، حيث أستأجر مربضاً لحصاني.

التفتت جيزيل إليّ، وقالت وكأنّها تتقصّد إعطاء الحديث منحىً أكثر سطحيّة:

-جاك يملك حصاناً جميلاً جدّاً. يدعى بلين أو سير[1].

- لا أدري إن كنت سأحتفظ به طويلاً، قال جاك دو بافيير. فامتلاك حصان مكلف جدّاً، ولم أعد أملك الكثير من الوقت للاستمتاع به.

لم يكن يتكلّم بلكنة الضواحي الطفيفة مثل أنسار، ووجود ذلك الحصان كان يثير فضولي. كنت أودّ رؤية

---

(1) Plaine au Cerf، ما يعني بالفرنسيّة سهل الإيّل.

الشقّة في شارع واشنطن و«زوجة أبيه» تلك التي كلّمتني عنها جيزيل.

- بوسعكما غداً الحضور إلى هنا أولاً أو الذهاب مباشرةً إلى شارع لا فيرم، قال أنسار. لا تنسيا... الموعد في الساعة السادسة... إليك هذا، واحد لك وواحد لشقيقتك...

مدّ لي ظرفين لم أجرؤ على رفضهما.

*

توقّفنا في أعلى جادّة الشانزيليزيه ووجدنا صعوبة في صفّ السيّارة. في الخارج، كان الهواء دافئاً وكأنّنا في مساء يوم سبت ربيعيّ.

قرّرنا الذهاب إلى السينما، لكنّنا لم نشأ ترك الكلب في السيّارة. فكّرت أنّه في صالة نابليون من جانب جادّة لا غراند آرميه، قد يكونون أكثر تساهلاً حيال الكلب من صالات العروض الحصريّة الكبرى. وبالفعل، سمحت لنا السيّدة خلف شبّاك التّذاكر وبوّابة الصالة بإدخاله

معنا. كانوا يعرضون فيلم «مغامر الريو غراندي»[1].

عند الخروج من السينما، عرضتُ عليها أن نتناول العشاء في مطعم. كنت لا أزال أحمل السبعة آلاف وخمسمائة فرنك التي أعطاني إيّاها ديلّافيرسانو، أضيفَ إليها ظرفا أنسار، وكلّ منهما يحتوي على ألفي فرنك.

كنت أودّ دعوتها، لكنّني كنت أهاب مطاعم الشانزيليزيه. فطلبت منها أن تختار مطعماً بنفسها.

- بوسعنا العودة إلى شارع واشنطن، قالت.

كنت أخشى أن أصادف جاك دو بافيير هناك. لكنّها طمأنتني. فهو سيبقى مع أنسار ولن يعود إلى منزله سوى في وقت متأخّر جدّاً.

كنّا جالسين قرب الزجاج.

- جاك يقطن في الجهة المقابلة.

أشارت لي إلى البوّابة بمصراعين عند الرقم 22.

كنت أفضل لو ننسى وجودهم، لكنّ ذلك صعب ما لم نغادر باريس. وبما أنّها كانت تؤكّد لي أنّ هذه الجماعة

---

(1) *L'Aventurier du Rio Grande* أو حسب عنوانه الأصليّ بالإنكليزيّة *The Wonderful Country*، فيلم للمخرج الأميركي روبرت باريش Robert Parrish عرض عام 1959.

يمكن أن تساعدنا، كنت على استعداد لتصديق كلامها. لكنّني كنت أتمنّى فقط أن أعرف المزيد عنهم، هذا كلّ ما في الأمر.

- هل زرتِ من قبل شقّة جاك دو بافيير؟ سألتها.

- أجل، أكثر من مرّة.

- بودّي أن أعرف في أيّ نوع من الأماكن يسكن...

- لا بدّ أنّ زوجة أبيه هنا.

بعدما انتهينا من العشاء، عبرنا الشارع، وتردّدت للحظة أمام بوّابة الرقم 22.

- لا داعي...

لكنّها أصرّت. سوف نقول لأرملة والده إنّنا على موعد مع جاك دو بافيير، أو إنّنا بكلّ بساطة كنّا في الجوار وخطر لنا أن نزوره.

- لكن أليس الوقت متأخّراً للقيام بزيارة؟ هل تعرفينها، تلك المرأة؟

- قليلاً.

دخلنا مبنى الرقم 22 ودقّت جيزيل على باب في الطابق الأرضيّ. فوق الجرس، لوحة صغيرة فضيّة محفور عليها

اسم: إيلَن جيمس.

سأل صوت امرأة:

- من هناك؟

كان هناك عين سحريّة في الباب. لا بدّ أنّها كانت تراقبنا.

- إنّنا صديقان لجاك، قالت جيزيل.

فُتح الباب وظهرت امرأة شقراء في حولى الخامسة والأربعين من العمر، ترتدي فستاناً من الحرير الأسود، وحول عنقها طوق من اللؤلؤ.

- أه، هذه أنتِ... قالت لجيزيل. لم أعرفك من خلف الباب...

رمقتني بنظرة مستفسرة.

- شقيقي، قالت جيزيل.

- تفضّلا...

كانت مصابيح جداريّة ذات زجاج خشن تبعث نوراً خافتاً في الردهة. وعلى كنبة لصق الحائط، تتكدّس معاطف رجاليّة ونسائيّة مرميّة هناك كيفما اتّفق.

- لم أكن أعلم أنّ لديك كلباً، قالت لجيزيل.

قادتنا إلى صالون فسيح تطلّ أبوابه الخارجيّة الزجاجيّة على حديقة. وفي عمق الصالون، من القاعة المجاورة، كانت تردنا جلبة أحاديث.

- إنّني أستقبل بعض الأصدقاء للعب الورق. لكنّ جاك ليس هنا هذا المساء...

لم تطلب منّا أن نخلع معطفينا. كان يخامرني انطباع بأنّها ستستأذننا للانضمام إلى الآخرين، فتتركنا وحيدين في ذلك الصالون.

- لا أدري في أيّ ساعة يعود...

كانت عيناها تعكسان قلقاً.

- هل رأيتِه اليوم؟ سألت المرأة جيزيل.

- أجل، تناولنا الغداء معاً. اصطحبنا السيّد أنسار إلى مطعمه.

انفرجت أسارير المرأة الشقراء.

- أنا لم أره هذا الصباح... غادر في ساعة مبكرة جدّاً...

كانت امرأة جميلة، لكنّني أذكر أنّها في ذلك المساء بدت لي هرمة رغم عمرها، امرأة ناضجة بسنّ والديّ. كان إحساس مماثل راودني حيال أنسار. أمّا جاك دو بافير،

فكان يذكّرني بأولئك الشبّان الذين كانوا يرحلون لخوض حرب الجزائر، حين كنت في السادسة عشرة.

- عذراً، قالت، لكن عليّ الانضمام إلى ضيوفي.

ألقيت نظرة سريعة إلى الصالون. تلبيسات من الخشب الأزرق الفاتح، وسواتر، وموقد من الرخام الشاحب اللون، وزجاج ومرايا. عند أسفل طاولة ذات ثلاث قوائم موضوعة لصق الحائط، كان الموكيت رثّاً تظهر حبكته. وعلى أحد الجدران، لاحظت فراغاً تركته لوحة انتُزعت من هناك. خلف الأبواب الخارجيّة كانت تلوح غيضة أشجار في نور القمر، ولم يكن بوسعي تمييز حدود الحديقة.

- تخال نفسك في الريف، أليس كذلك؟ قالت لي المرأة الشقراء، وقد باغتتني أجول بنظري. تمتدّ الحديقة حتّى مباني شارع بيري...

وددت لو أسألها بلا مواربة إن كانت حقّاً أرملة والد جاك دو بافيير. رافقتنا إلى الباب.

- إن رأيتُ جاك، فهل تريدان أن أنقل له رسالة؟

طرحتْ هذا السؤال وهي شاردة الذهن. لا بدّ أنّها

كانت متلهّفة للعودة إلى ضيوفها.

*

كان الوقت لا يزال مبكّراً. كان هناك صفّ انتظار في سينما نورماندي للجلسة المسائيّة الثانية.

انحدرنا في الجادّة مع الكلب.

- هل تعتقدين حقّاً أنّها زوجة والده؟ سألْتُ.

- هذا ما يقوله. روى لي أنّها تدير نادي بريدج في الشقّة، وأنّه يساعدها أحياناً في الإشراف عليه.

نادي بريدج. هذا ما يفسّر الامتعاض الذي أحسَست به. لما كنت تفاجأت لو وجدنا قطع الأثاث مكسوّة بأغطية. لاحظت حتّى مجلّات مكدّسة على طاولة منخفضة، كما في تلك الصالونات التي يستخدمها أطبّاء الأسنان قاعات انتظار. هكذا إذن، الشقّة التي يسكنها جاك دو بافيير وأرملة أبيه المزعومة لم تكن في الواقع سوى نادٍ للبريدج. فكّرت في والدي. هو أيضاً كان سيُقبِل على مثل هذه الوسيلة، وكان غرابلي سيلعب دور السكرتير والبوّاب. الواقع أنّهم ينتمون جميعاً إلى العالم ذاته.

كنّا وصلنا إلى مستوى مركز «أركاد دو ليدو» التجاري[1]. تملّكتني فجأة رغبة جامحة في الفرار من تلك المدينة، وكأنّني أحدس خطراً محدِقاً بي.

- ما بك؟ تبدو شاحباً...

توقّفَت. فدفعتنا مجموعة من المارّة لدى عبورها. بدا الكلب أيضاً قلقاً، رافعاً رأسه صوبنا.

- لا داعي للقلق... مجرّد دوار...

كابدْتُ نفسي لأبتسم لها.

- هل تريد أن تجلس لحظة وتشرب شيئاً؟

كانت تشير لي إلى رصيف مقهى، لكن لم يكن بوسعي الجلوس وسط حشود مساء السبت تلك. كنت سأختنق بينها. وفي مطلق الأحوال، لم يكن هناك مقعد شاغر.

- لا... دعينا نواصل المشي... سأكون أفضل حالاً بعد قليل...

أمسكْتُ بيدها.

- ألا تريدين أن نرحل حالاً إلى روما؟ سألتُها. وإلّا،

---

(1) Les Arcades du Lido مركز تجاريّ في جادّة الشانزيليزيه، يحمل اسم ملهى ليليّ باريسيّ شهير انتقل لاحقاً في موقع آخر.

فلديّ انطباع بأنّه سيفوت الأوان...

كانت تنظر إليّ محملقة.

- لماذا حالاً؟ لا بدّ من الانتظار حتّى يساعدنا أنسار وجاك دو بافيير... لا حيلة لنا من دونهما...

- هلّا نعبر الشارع؟ الجهة المقابلة أكثر هدوءاً...

بالفعل، كان الرصيف من الجانب الأيسر أقلّ زحمة. مشينا في اتّجاه ساحة ليتوال[1]، حيث كنّا ركنّا السيّارة. إذ أحاول اليوم أن أستحضر ذكرى ذلك المساء، يتراءى لي خيالان مع كلب، يرتقيان الجادّة. وحولهما، تخلو الشوارع شيئاً فشيئاً من المتنزّهين، وتفرغ أرصفة المقاهي من الروّاد، وتطفئ دور السينما أضواءها. حلمت الليلة أنّني كنت جالساً على رصيف أحد مقاهي الشانزيليزيه بين بعض الروّاد المتأخّرين. كانوا أطفأوا أضواء الصالة وبدأ النادل يرفع الكراسي على الطاولات ليوحي لنا بأنّ الوقت حان للرحيل. خرجت. وفيما كنت أمشي صوب ساحة ليتوال، سمعت صوتاً نائياً يقول لي: «يجب أن ننتظر

(1) Place de l'Etoile ساحة النجمة، هي ساحة في باريس يتوسّطها قوس النصر وتلتقي عندها اثنتا عشرة جادّة لتعطيها شكل نجمة.

حتّى يساعدنا أنسار وجاك دو بافيير». كان ذلك صوتها الخفيض، المبحوح قليلاً على الدوام.

*

على رصيف كونتي، كانت نوافذ المكتب مضاءة. أترى نسي غرابلي أن يطفئ النور حين خرج في جولته؟

كنّا نعبر الرّدهة في العتمة مع الكلب حين سمعنا قهقهات.

مشينا على أطراف أقدامنا، وكانت جيزيل تمسك بالكلب من طوقه. كنّا نأمل أن ننسلّ صعوداً على الأدراج دون أن نلفت انتباه أحد. لكن في اللحظة التي وصلنا فيها أمام باب المكتب الموارب، فُتِح فجأةً وأطلّ غرابلي، حاملاً بيده قدحاً.

انتفض جفِلاً عند رؤيتنا. بقي واقفاً في فتحة الباب، يتأمّل الكلب بذهول.

- عجباً... لا أعرفه هو...

هل كان أسرف في الشرب؟ قام بحركة رصينة، مشيراً إلينا بالدخول.

كانت امرأة شابّة سمراء جالسة على الكنبة. كانت صغيرة القامة، وجهها مستدير وشعرها قصير. وعند قدميها، زجاجة شمبانيا. كانت تمسك بيدها قدحاً، ولم تَبدُ مرتبكة على الإطلاق لوصولنا. عرّفنا غرابلي بعضنا على بعض.

- سيلفيت... أوبليغادو والآنسة...

ابتسمت لنا.

- لماذا لا تقدّم لهما قليلاً من الشمبانيا؟ قالت لغرابلي. من المحرج أن أشرب وحيدة.

- سوف أجلب قدحين...

لكنّه لن يجد أيّ قدح في المطبخ. فلم يبقَ لنا سوى قدحين: قدحه وقدح الفتاة. سوف يضطرّ إلى جلب فنجانين، أو ربّما حتّى واحد من تلك الأكواب الكرتون التي كنّا نستخدمها منذ بضعة أسابيع.

- لا تكلّف نفسك هذا العناء، بادرته بالقول.

اقترب الكلب من السمراء القصيرة القامة، فشدّته جيزيل من طوقه.

- دعيه... أحبّ الكلاب كثيراً...

راحت تداعب جبينه.

- هل تعرفان أين قابلتُ سيلفيت؟ سأل غرابلي.

- وهل تعتقد حقّاً أن هذا يهمّهما؟ سألَتْه.

- التقيتها في «لا تومات»...

كانت جيزيل مقطّبة. خفت أن تتركنا وتغادر.

احتست السمراء القصيرة القامة جرعة من الشمبانيا، سعياً لإخفاء اضطرابها.

- ألا تعرف «لا تومات» أوبليغادو؟

تذكّرت أنّني كنت أعبر أمام ذلك الملهى اللّيليّ مساء كلّ يوم أحد، حين أذهب لإحضار والدتي التي كانت في تلك الفترة تمثّل في أحد مسارح حيّ بيغال.

- إنّني راقصة، قالت بارتباك، ووظّفوني هناك لخمسة عشر يوماً... لكنّني لن أبقى عندهم... فالعرض قبيح...

- لا، أبداً، قال غرابلي.

علت الحمرة وجهها وخفضت عينيها.

من الحماقة أن تشعر بالإحراج أمامنا. تذكّرْت مساءات الأحد تلك، حين كنت أعبر باريس مشياً، من الضفّة

اليسرى إلى بيغال، واليافطة الضوئيّة عند طرف شارع نوتر دام دو لوريت، حمراء، ثمّ خضراء، ثمّ زرقاء:

لا تومات
عروض تعرٍّ
متواصلة

وعلى مسافة ضئيلة إلى الأعلى، مسرح فونتين. كانت والدتي تلعب فيه دوراً في مسرحيّة هزليّة بعنوان «الأميرة المعطّرة». ثمّ تحين رحلة عودتنا في آخر حافلة إلى تلك الشقّة على رصيف كونتي، وكانت آنذاك متداعية بقدر يكاد يوازي حالتها في ذلك المساء.

- نخب «لا تومات»، قال غرابلي رافعاً قدحه.

رفعت السمراء القصيرة القامة قدحها هي أيضاً، كأنّما مكابرة. بقينا أنا وجيزيل بلا حراك. وكذلك الكلب. دقّا كأسيهما. ثمّ ساد الصمت لبرهة طويلة. كنّا جميعنا واقفين تحت النور الشاحب المنسكب من المصباح في السقف، وكأنّنا نحتفل بذكرى غامضة.

- عذراً، قالت جيزيل، النعاس يغلبني.

- غداً الأحد، يمكننا الذهاب جميعاً إلى «لا تومات» لمشاهدة سيلفيت، قال غرابلي.

عاودتني من جديد ذكرى مساءات أيّام الأحد في ما مضى.

*

كان نومي مضطرباً في تلك الليلة. وبين الحين والآخر، كنت أستيقظ جفلاً وأتثبّت ممّا إذا كانت لا تزال بجانبي في السرير. كنت محموماً. الغرفة تحوّلت إلى عربة قطار. وفي إطار النافذة، كان يظهر خيالا غرابلي والسمراء القصيرة القامة. كانا واقفين على رصيف المحطّة، ينتظران رحيلنا. كانا يمسكان كوبين من الكرتون ويرفعان ذراعيهما لدقّ كوبيهما أحدهما بالآخر، كأنّهما في مشهد بطيء. كنت أسمع صوت غرابلي المكتوم: «نلتقي غداً الأحد في لا تومات...» لكنّني كنت أعلم جيّداً أنّنا لن نذهب إلى الموعد. سوف نغادر باريس من غير رجعة. ثمّ ينطلق القطار. وتلوح المباني وبيوت الضاحية الصغيرة مرّة أخيرة، ظلالاً

سوداء ترتسم على سماء المغيب. كنّا محشورَين في سرير ضيقّ من أسرّة القطار، وخضخضات العربة تهزّنا بقوّة. غداً صباحاً، سوف يتوقّف القطار على رصيف محطّة غارق في نور الشمس.

كان يوم الأحد. نهضنا في وقت متأخّر جدّاً، ونحن نشعر بأنّنا مصابون بالإنفلونزا. كان يتحتّم علينا البحث عن صيدليّة في الحيّ تفتح يوم الأحد لشراء علبة من الأسبرين. وفي مطلق الأحوال، كان علينا أن نُخرج الكلب في نزهته.

كان غرابلي غادر المنزل. ترك رسالة وضعها بشكل ظاهر على كنبة المكتب:

عزيزي أوبليغادو،

لم تستيقظ بعد، وأنا ذاهب لحضور قدّاس الساعة الحادية عشرة في سان جرمان ديه بريه.

اتّصل والدك هذا الصباح، لكنّ المكالمة كانت رديئة

للغاية، لأنّه كان يتّصل من مقصورة عامّة للهاتف في الهواء الطلق: كنت أسمع أبواق سيّارات وجلبة سير تطغى على صوته.

وعلى كلّ حال، قُطِع الخطّ، لكنّني واثق بأنّه سيعاود الاتّصال. لا بدّ أنّ حياته ليست سهلة في سويسرا. نصحته بعدم الذهاب إلى هذا البلد. إنّه بلد قاسٍ على مَن لا يملكون رصيداً...

نحن في انتظاركما حتماً مساء اليوم الأحد. العرضان الأخيران في الساعة الثامنة والساعة العاشرة والنصف. لكما الخيار.

بعد ذلك، نذهب لتناول العشاء في الحيّ. أرجو أن تنضمّا إلينا.

هنري

وجدنا صيدليّة مفتوحة في شارع سانت أندريه ديزار. ذهبنا لتناول أقراص الأسبرين في أحد المقاهي على رصيف النهر، ثمّ مشينا حتّى جسر لا تورنيل، بعدما فكّت زمام الكلب.

كان الطقس جميلاً، كما في اليوم السابق، غير أنّ الجوّ أبرد، بحيث نخال أنّنا في يوم مشمس من شهر فبراير. قريباً يحلّ الربيع. أو كنت بالأحرى أعلّل نفسي بذلك الوهم، لأنّ فكرة قضاء الشتاء برمّته في باريس من غير أن أكون واثقاً من أنّني سأتمكّن من البقاء في الشقّة، كانت تتسبّب لي بقلق طفيف.

شعرنا خلال نزهتنا بأنّنا أفضل حالاً. تناولنا الغداء في فندق على رصيف لي غرانز أغوستان، يدعى «لو روليه بيسّون». وإذ تنبّهنا إلى أنّ الأطباق باهظة الثمن، اكتفينا بطلب حساء وحلوى وقليل من اللّحم المفروم للكلب.

انقضى العصر في خمول لذيذ، بقينا ممدّدين في سرير غرفة الطابق الخامس، ثمّ استمعنا إلى الإذاعة. كنّا شغّلنا المذياع في المكتب. أذكر أنّ البرنامج كان مخصّصاً لعازفي جاز.

فجأة تبدّد السّحر. كان علينا أن نحضر بعد ساعة إلى الموعد الذي حدّده لنا أنسار.

- ما رأيك لو نتخلّف عن الموعد؟ سألتُها.

تردّدت لحظة. شعرت بها على وشك أن تقتنع بفكرتي.

- عندها يترتّب علينا الانقطاع عنهم تماماً وترك السيّارة في شارع رافّيه...

تناولَت سيجارة من علبة «كاميل» نسيها غرابلي هناك. أشعلَتها وسحبت منها مجّة. أخذت تسعل. كانت تلك أوّل مرّة أراها تدخّن.

- من الحماقة أن ندخل في خلاف معهم...

شعرْتُ بالخيبة لتبديلها رأيها. أطفأت سيجارتها في المنفضة.

- سوف ننفّذ ما قالوا لنا، وبعدها أطلب من أنسار مبلغاً طائلاً من المال حتّى نتمكّن من الرحيل إلى روما.

خيّل لي أنّها تقول ذلك لمجرّد إقناعي، من غير أن تؤمن به هي نفسها. كانت الشمس تبعث شعاعاً أخيراً يضيء رأس الجزيرة، عند طرف حديقة فير غالان. بات المارّة نادرين على رصيف النهر، وباعة الكتب المستعملة كانوا يغلقون خزائنهم. سمعت ساعة المعهد تدقّ الخامسة.

قرّرنا أن نترك الكلب في الشقّة، على أن نعود إليه بأسرع ما يمكن. لكن حين أغلقنا الباب، راح ينبح بلا هوادة ويطلق عويلاً. فأذعنّا واصطحبناه معنا إلى الموعد.

كنّا لا نزال في النهار حين وصلنا إلى غابة بولونيا. كان الوقت مبكراً عن الموعد، وتوقّفنا أمام موقع قصر مدريد سابقاً[1]. مشينا في الفسحة التي ترتفع فيها أشجار صنوبر، وصولاً إلى بحيرة سانت جيمس حيث شاهدت ذاتَ يومِ شتاءٍ من طفولتي متزحلقين ينزلقون على الجليد. رائحة الأرض البليلة والليل الذي أخذ يهبط أعادا إليّ من جديدٍ ذكرى مساءات أيام الأحد في ما مضى، إلى حدّ بعث فيّ

(1) Château de Madrid قصر مدريد أو قصر بولونيا، هو قصر ملكيّ شيّد في غابة بولونيا في القرن السادس عشر ودمّر كليّاً في أواخر القرن الثامن عشر، في موقع بوّابة مدريد حاليّاً.

قلقاً مكتوماً كالذي كان ينتابني لفكرة العودة في صباح اليوم التالي إلى المدرسة. بالطبع، بات الوضع مختلفاً، فكنت أمشي في غابة بولونيا معها هي، وليس مع والدي، أو مع صديقي شاريل أو كارفيه. لكن كان هناك شيء مماثل يطفو في الجوّ، الرائحة ذاتها، وكان يوم أحد أيضاً.

- هيّا بنا، قالت لي.

هي أيضاً بدت قلقة. كنت أبقي عينيّ مسمّرتين على الكلب الذي كان يجري أمامنا، علّ منظره يطمئنني. سألتها إن كنّا سنستقلّ السيّارة، فأجابت أنْ لا داعي لذلك.

مشينا على طول شارع لا فيرم. باتت تمسك الكلب بزمامه. عبرنا أمام بوّابة منزل عائلة شاريل، ثمّ أمام ميدان هاوليت لتعليم الفروسيّة الذي بدا مهجوراً. عائلة شاريل رحلت حتماً من منزلها. كانوا ينتمون إلى تلك الفئة من الناس الذين لا يستقرّون في مكان. أين عساه يكون ألان شاريل في ذلك المساء؟ في مكان ما في المكسيك؟ كنت أسمع وقع حوافر في البعيد. التفتّ: لمحت فارسين لم أميّز سوى خيالَيهما، يطلّان من أوّل الشارع. هل يكون

أحدهما الرجل الذي يفترض أن نكلّمه بعد قليل؟

راحا يقتربان منّا شيئاً فشيئاً. كان لا يزال بمقدورنا أن نعود أدراجنا، ونستقلّ السيّارة، ونتركها أمام المبنى في شارع رافّيه، ونختفي مع الكلب من غير أن يسمع أحد بنا بعد ذلك.

شدّت على ذراعي بقوّة.

- لن يستغرق الأمر طويلاً، قالت لي.

- هل تعتقدين ذلك؟

- ما إن نكلّم هذا الشخص حتى نخرج من المقهى وندعهم يتدبّرون أمورهم.

كان الفارسان في هذه الأثناء انعطفا يميناً في شارع سانت جيمس الصغير، وخبا وقع الحوافر.

كنّا وصلنا أمام المقهى. هناك، في ذلك الجزء من شارع لا فيرم الذي يفضي إلى نهر السين، لاحظت سيّارة أنسار. كان أحدهم جالساً على واقي العجلات. هل هو جاك دو بافيير؟ لم أكن واثقاً من ذلك. وكان خَيالان يشغلان المقعد الأماميّ.

دخلْنا. فاجأني المكان برفاهه، إذ كنت أتوقّع مقهىً

بسيطاً. كان هناك منضدة شرب وطاولات مستديرة من خشب الماهوغاني. وكنبات من الجلد البالي قليلاً. وتلبيسات خشبيّة على الجدران. وفي موقد من أحجار القرميد، أُشعِلت نار.

جلسنا إلى أقرب طاولة إلى المدخل. كان حولنا بضعة زبائن، لكنّني لم ألحظ الرجل بينهم.

كان الكلب ممدّداً بوداعة عند أقدامنا. طلبنا قهوتين ودفعت الحساب حتّى نرحل ما إن ننقل الرسالة الى ذلك المجهول.

أخرجَت جيزيل من جيب معطفها الواقي من المطر علبة السجائر التي كانت لغرابلي، وأشعلت واحدة. سحبت منها مجّة بارتباك. كانت يدها ترتجف.

- هل أنّت خائفة؟ سألتها.

- لا، إطلاقاً.

فُتِح الباب ودخل ثلاثة أشخاص: امرأة ورجلان. كان أحدهما رجل الصّورة: الجبين العريض ذاته، والشعر الكستنائيّ الداكن المسرّح إلى الخلف.

كانوا يواصلون حديثاً بانفعال. وقهقهت المرأة ضاحكة.

جلسوا إلى طاولة في عمق القاعة، قرب الموقد. خلع الرجل معطفه الكحليّ. لم يكن يرتدي سروال فروسيّة.

أطفأت جيزيل السيجارة في المنفضة. كانت تبقي رأسها محنيّاً. هل كانت تحاول تفادي نظرة الرجل؟

كان جالساً بمواجهتنا، هناك، في آخر طاولة من القاعة. أمّا الآخران، سمراء في حوالى الثلاثين من العمر وأشقر نحيل الوجه معقوف الأنف، فكانا جالسين جانبيّاً.

كانت المرأة تتكلّم بصوت عالٍ. بدا الرجل أصغر سنّاً منه في صورة بطاقة الهويّة الكبيرة.

نهضْتُ، ويداي رطبتان.

تقدّمت، وها أنا واقف أمام طاولتهم. قطعوا حديثهم.

انحنيت صوبه:

- إنّني مكلّف بنقل رسالة إليك.

- رسالة من قبلِ مَن؟

كان صوته عالي النبرة، وكأنّه يغصّ، وبدا مستاءً لإزعاجه.

- من قبل بيار أنسار. إنّه ينتظرك في السيّارة، عند زاوية الشارع.

كنت قد تشنّجت وقلت هذه الجملة جاهداً للفظِ مقاطعها الصوتيّة بأوضح ما أمكنني.

- أنسار؟

كان وجهه يعكس ارتباك شخص يتلقّى توبيخاً في مكان وفي وقت لم يكن يتوقّع ذلك فيهما.

- ويريد أن يراني حالاً؟

- نعم.

ألقى نظرة مهمومة إلى مدخل المقهى.

- عذراً لحظة، قال لجارَيه. عليّ فقط أن أخرج لأحيّي صديقاً ينتظرني في الخارج.

كان الآخران يتأمّلانني ببعض الاستخفاف، ربّما بسبب سنّي الصغيرة ومظهري المهمَل؟ خطر لي أنّه قد يكون بوسعهما لاحقاً التعرّف عليّ. هل لاحظا وجود جيزيل؟

نهض وارتدى معطفه الكحليّ. ثمّ التفت إلى الأشقر وقال له:

- تذكّر أن تحجز لهذا المساء... سنكون ثمانية...

- هذه حماقة، قالت المرأة. كان بوسعي إعداد عشاء عندي...

- لا، إطلاقاً... أراكما بعد قليل...

بقيْت واقفاً أمامهما. فقال لي:

- إذن، أين هي، تلك السيّارة؟

- سوف أرافقك.

تقدّمْتُه نحو المدخل. كانت جيزيل تنتظر، واقفة أمام الطاولة مع الكلب. فاجأه وجودها. فتحْتُ الباب وتركْتُهما يمرّان.

كانت السيّارة اقتربت. ركنوها عند زاوية شارع لونشان. وكان جاك دو بافيير واقفاً، متّكئاً قليلاً إلى هيكلها. خرج أنسار تاركاً الباب الأماميّ مفتوحاً، ولوّح لنا بذراعه. كان الشارع مضاء بالمصابيح. وفي الهواء البارد والنقيّ، كانت واجهات المباني ومساحات الجدران وخطوط السيّارة ترتسم بوضوح.

تقدّم الرجل صوبهما، فيما بقينا نحن واقفين على الرصيف بلا حراك. نسيَ وجودنا تماماً. رفع ذراعه هو أيضاً ملوّحاً لأنسار وقال:

- يا لها من مفاجأة...

كان يتكلّم مع أنسار في وسط الشارع. لم تكن تردنا

سوى همهمة الأصوات. كان بوسعنا الانضمام إليهم. يكفي أن نقوم ببضع خطوات. لكنّه بدا لي أنّنا لو توجّهنا صوبهم، لدخلنا منطقة من الخطر. وفي مطلق الأحوال، لم يكن أيّ من أنسار أو جاك دو بافيير ليعيرنا أدنى اهتمام. باتا فجأة بعيدين عنّا، في مساحة أخرى، ويمكنني القول اليوم، وقد تسمّر المشهد إلى الأبد: في زمن آخر.

حتّى الكلب الذي لم تكن جيزيل تمسك به من زمامه بقي بجانبنا بلا حراك، وكأنّه يخمّن هو أيضاً حدوداً خفيّة بيننا وبينهم.

فتح جاك دو بافيير أحد أبواب السيّارة وترك الرجل يدخل، ثمّ جلس بجانبه. جلس أنسار في المقعد الأماميّ. لم يكن الرجل في مقعد السائق خرج من السيّارة، ولم أتمكّن من تمييز ملامح وجهه. صفقوا الأبواب. التفّت السيّارة وسلكت شارع لا فيرم في اتّجاه نهر السين.

تبعتها بنظري إلى أن توارت عند منعطف رصيف النهر.

*

سألتُ جيزيل:

- إلى أين تعتقدين أنّهم ذاهبون؟

- إنّهم يصطحبونه إلى شارع رافّيه...

- لكنّه قال لأصدقائه إنّه عائد حالاً...

ورغم ذلك، لم يدفعوه عنوةً داخل السيّارة. لا بدّ أنّ أنسار هو الذي أقنعه بمرافقتهم خلال حديثهما الوجيز في وسط الشارع.

- ربّما يجدر بي أن أنبّه الأخرَين بعدم انتظاره، اقترحتُ.

- لا... يجب ألّا نتدخّل في هذه القضيّة.

فاجأتني نبرتها القاطعة، وخيّل لي أنّها أكثر علماً منّي بما يجري.

- هل تظنّين فعلاً أنّه لا ينبغي علينا إبلاغهم؟

- طبعاً لا... سيرتابون منّا... وسيطرحون علينا أسئلة...

تصوّرتُني واقفاً أمام طاولتهم، أشرح لهم أنّ صديقهم غادر في سيّارة. سوف تنهال الأسئلة عليّ مثل لكمات، تتسارع وتزداد إلحاحاً:

هل أنت واثق من أنّك رأيته يغادر؟ ومع مَن؟
ومن هم الذين كلّفوك بتلك الرسالة؟
أين يسكن هؤلاء الناس؟
ومن تكون أنت بالضبط؟
وأنا أمامهم، عاجزاً عن الفرار تحت وابل الأسئلة، وساقاي متثاقلتان كالرّصاص، كما في الكوابيس.
- يجدر بنا عدم البقاء هنا، قلت لها.
فهم قد يخرجون بين لحظة وأخرى للتثبّت ممّا إذا كان صديقهم فعلاً هناك. تبعنا شارع لا فيرم صوب الغابة. وحين وصلنا إلى مستوى منزل عائلة شاريل سابقاً، تساءلت ما الذي كان آلان سيقوله عن هذه الأحداث.
أطبق عليّ إحساس بالضيق. ثمّة رجل غادر شخصين قائلاً لهما: «أراكما بعد قليل». جعلوه يصعد في سيارة توجّهت به نحو السين. كنّا أنا وهي الشاهدَين، وكذلك الشريكَين في هذا الاختفاء. حصل كلّ ذلك في أحد شوارع نويّي، قرب غابة بولونيا، في حيّ يذكّرني بآحادٍ أخرى... كنت أتنزّه في ممرّات الغابة مع والدي وأحد أصدقائه، رجل طويل القامة، نحيل جدّاً، لم يبقَ له من

مرحلة أكثر أبّهة من حياته سوى معطف مبطّن بالفرو وسترة يرتديهما حسب الفصول. لاحظت في تلك الفترة كم كانت ملابسه بالية. كنّا نرافقه في المساء حتّى فندق في نويّي كان يبدو أشبه بنزل عائليّ. كانت غرفته على حدّ قوله ضيّقة، ومريحة إلى حدّ مقبول.

- ما الذي يجول في بالكَ؟

أمسكَتْ بذراعي. كنّا نمرّ بمحاذاة فسحة الصنوبر. لو عبرناها، لوصلنا بسرعة أكبر إلى الموقع الذي كانت السيّارة مركونة فيه. لكنّ الظلام كان دامساً، ووحدها جادّة ريشار والاس كانت مضاءة.

كنت أفكّر في خيال ذلك الرجل، في ابتسامته ووجهه الذي لا تكاد تظهر عليه بصمات العمر. لكن بعد فترة، يظهر جليّاً أنّه كيان واحد مع المعطف والسّترة الباليين، وأنّ ثمّة لولباً انكسر في داخله. من كان؟ وما الذي حلّ به؟ لقد اختفى حتماً، مثل الآخر قبل قليل.

*

انطلقتْ وقادت السيّارة بنا في اتّجاه حديقة التأقلم[1].

كنت أتأمّل الأضواء خلف نوافذ المباني.

توقّفتْ عند الإشارة الحمراء في جادّة مدريد. كانت متجهّمة. بدا عليها أنّها تشعر بالضيق ذاته الذي كان ينتابني.

راحت واجهات المباني تتعاقب بأضوائها. من المؤسف أنّنا لم نكن نعرف أحداً. كنّا آنئذ سندقّ باب إحدى تلك الشقق الهادئة الكتيمة. وكنّا سنُدعى لتناول العشاء برفقة أشخاص راقين يبعثون على الطمأنينة. عاودتني جملة الرجل: «تذكّر أن تحجز لهذا المساء... سنكون ثمانية...»

أتُراهم أجروا الحجز في نهاية المطاف، بعدما انتظروا عودته بلا جدوى؟ وفي هذه الحالة، سوف يلتقي المدعوّون السبعة وينتظرون ثامنهم. غير أنّ المقعد سيبقى شاغراً.

مطعم يُفتح مساء الأحد... كنّا أنا ووالدي وصديقه

(1) Jardin d'Acclimatation حديقة ومنتزه في شمال غابة بولونيا في باريس، سمّي «حديقة التأقلم» لأنّ الهدف الأوّل منه كان المساهمة في دخول أنواع من الحيوانات والنباتات الغريبة وجعلها تتأقلم مع بيئتها الجديدة. وثمّة في الجزائر العاصمة حديقة مماثلة تسمّى «حديقة التّجارب».

نرتاد واحداً قرب ساحة ليتوال. نقصده في ساعة مبكّرة، قرابة السابعة والنصف. وحين يبدأ الزبائن بالتوافد، نكون أنهينا عشاءنا. وفي مساء يوم أحد، دخلت مجموعة من الأشخاص في غاية الأناقة، وبالرغم من أنّني كنت لا أزال في الحادية عشرة من العمر، أبهرني جمال النساء وتألّقهنّ. وقعت نظرة إحداهنّ فجأةً على صديق والدي. وكان يرتدي سترته الرثّة. بدت مذهولة لرؤيته هناك، لكن بعد لحظة، عاد وجهُها صفحة ملساء لا تعكس أيّ مشاعر. ذهبَتْ للجلوس مع رفاقها إلى طاولة بعيدة عن طاولتنا.

أمّا هو، فامتقع وجهه. انحنى صوب والدي وقال جملة بقيت محفورة في ذاكرتي:

- غابيل عبرت للتوّ... عرفتها في الحال... لكنّني أنا تغيّرت كثيراً منذ نهاية الحرب...

كنّا وصلنا إلى بوّابة مايّو. التفتتْ صوبي.

- أين تريد أن نذهب؟

- لا أدري...

كنّا نشعر بالضّياع. هل ندقّ على باب أنسار لمعرفة

المزيد؟ لكن لم يكن يجدر بنا التدخّل في شؤونهما. وددت لو أنّي لا أعود أرى هؤلاء الأشخاص إطلاقاً، وأغادر باريس بأسرع ما أمكن.

- إن كنّا سنرحل إلى روما، فالآن هو الوقت المناسب لذلك، قلت لها.

- أجل، لكنّنا لا نملك ما يكفي من المال.

كنت أحمل معي السبعة آلاف وخمسمائة فرنك التي أعطاني إيّاها ديلّافيرسانو، والأربعة آلاف فرنك من أنسار. كان ذلك المبلغ كافياً. لم أجرؤ على الاستفهام منها عن المبلغ الذي كانت تحمله هي.

ردّدت على مسمعيها أنّني تلقّيت وعداً بالحصول على وظيفة ثابتة في روما، وأنّه لن يعود لدينا أيّ مشكلة هناك. بدأت حججي تقنعها.

- علينا أن نصطحب الكلب معنا، قالت لي.

- بالطبع...

وبعد لحظة تفكير، أضافت:

- الأنسب أن نذهب إلى هناك بهذه السيّارة. حتّى لو لم نطلب رأيهم، لن يكون بوسعهم رفع شكوى...

ضحكَتْ ضحكة عصبيّة. صحيح أنّهم لن يقدّموا شكوى، بما أنّنا صرنا هذا المساء شريكين لهما، ولا بدّ لهما من الاعتماد على صمتنا. تلك الفكرة كانت تبعث فيَّ الذعر. فأنا من قال: «إنّني مكلّف بنقل رسالة إليك من قبل بيار أنسار. إنّه ينتظرك في السيّارة، عند زاوية الشارع». وذلك، أمام شاهدَين. وتقاضيت المال.

لا شكّ أنّ وجهي عكس تعبيراً غريباً، لأنّها لفّت ذراعها حول كتفي، وأحسستُ بشفتيها تلامسان خدّي.

- لا تقلق، همست في أذني.

- هل نمرّ لرؤية غرابلي...؟ سيكون في «لا تومات» قرابة الساعة التاسعة...

كان لكلمة «تومات» وقع طيّب يبعث الطمأنينة.

- لا مانع إن أردتَ ذلك...

بالطبع، لم أكن آمل الحصول على أيّ دعم معنويّ من غرابلي. كان لديه قاسم مشترك مع والدي: كلاهما يرتدي بذلات ويضع ربطات عنق وينتعل حذاءين كالجميع. وهما يتكلّمان الفرنسيّة دون أيّة لكنة، ويدخّنان السجائر، ويشربان فناجين إكسبرسّو، ويتناولان أطباقاً من المحار.

لكن حين يكون الواحد برفقتهما، يساوره شكّ ويشعر بالرغبة في لمسهما، كمن يتحسّس قماشة، للتثبّت من أنّهما حقيقيّان.

- هل تظنّ أنّ بوسعه القيام بأيّ شيء من أجلنا؟ سألتني.

- من يدري؟

كان الوقت لا يزال مبكّراً لملاقاته. لا بدّ من الانتظار ساعتين أخريين. لاحظت إلى اليسار، على مقربة منّا، في الجادّة، واجهة سينما «مايّو بالاس» المشعّة بالأضواء، وعرضت عليها أن نشاهد الفيلم المعروض فيها: «ملكة السّهل»[1]. لم تُدْلِ بوّابة الصالة بأيّ ملاحظة حول الكلب.

حين جلسنا في المقاعد المخمليّة الحمراء، تبدّد اضطرابي.

*

كان شارع نوتر دام دو لوريت مظلماً، والأرصفة مقفرة. كانت تلك هي الساعة التي ينتهي فيها الناس من

---

(1) *Cattle Queen of Montana* أو حسب اسمه الفرنسي *La Reine de la prairie* هو فيلم أميركي للمخرج آلان دوان Allan Dwan يعود الى العام 1954.

تناول العشاء ويخلدون إلى النوم باكراً. في اليوم التالي، سيترتّب العودة إلى المدرسة وإلى العمل. في الأعلى، كانت يافطة «لا تومات» الضوئيّة تشعّ عبثاً في شارع ميت. من ذا الذي يمكن أن يحضر عرض مساء الأحد؟ ربّما بحّار في إجازة، قبل أن يستقلّ القطار مجدّداً في محطّة سان لازار عائداً إلى شيربور؟

أشارت لنا البوّابة إلى طريق الكواليس. كانت تحت الأرض. نزلنا أدراجاً قادتنا إلى ردهة صغيرة زُيّنت جدرانها بلافتات قديمة للملهى.

كان غرابلي واقفا أمام أحد الأبواب المؤدّية إلى المقاصير، مرتدياً بذلة بنقشة أمير ويلز وربطة عنق من جلد الأيّل. بدا مغموماً.

- يا لها من مفاجأة سارّة... من اللّطف أن تأتيا...

لكنّه أسرّ إلينا بأنّ سيلفيت في مزاج عكر جدّاً، وأنّها كانت في ذلك الحين تبدّل ملابسها في مقصورتها. من الجيّد أن نكون أتينا في ذلك الوقت، لأنّه لن يكون هناك عرض في الساعة العاشرة والنصف. اقترح علينا أن نذهب إلى الصالة. فأجبته أنّنا نفضّل البقاء هناك معه. وفي

مطلق الأحوال، ما كانوا سيسمحون لنا بإدخال الكلب.

- خسارة!

من الواضح أنّه كان يشعر بالخيبة لقلّة حماستنا لمشاهدة العرض.

فُتح باب المقصورة وظهرت سيلفيت. كانت تضع قناعاً وترتدي مشدّاً للخصر مرقّطاً كجلد النمر. حيّتنا بصوت جافّ. ثمّ التفتت إلى غرابلي وقالت له إنّه ليس ملزماً بانتظارها في الكواليس. فهي أساساً تشعر بالخزي للمشاركة في ذلك العرض، وإن تحتّم أن يرافقها شخص ويبقى في مقصورتها، فذلك يزيد الأمر سوءاً... ثمّ تصاعدت النبرة. أجل، إنّ أيّ رجل يملك ذرّة من المنطق كان سيفهم أنّه من المذلّ لراقصة أن تفرّط بنفسها، لكن لا بدّ لها من كسب معيشتها، بما أنّه ليس لديها من يساعدها. ثمّ لامته لأنّه جعلنا نأتي نحن أيضاً. فهي لم تصل بعد في انحدارها إلى مستوى مسخٍ في سيرك، أو دابّة يذهب الناس لمشاهدتها في حديقة الحيوانات يوم الأحد. كان غرابلي يطأطئ رأسه. تركتنا هناك وتوجّهت صوب الأدراج. وحين بدأت تتسلّقها على كعبيها العاليين، ذكّرني

تمايلها على الفور بشيء ما: أجل، أجل، تلك الفتاة العارية بشعرها المربوط التي تظهر صورتها في إحدى المجلّات في المكتب، إنّها هي.

تبعها غرابلي بعينيه إلى أن توارت. تعالت أولى نغمات موسيقى مكسيكيّة ترافقها أبواق. لا شكّ أنّها أطلّت للتوّ على المسرح.

- هي قاسية جدّاً، قاسية جدّاً...، قال.

تبادلنا نظرة أنا وجيزيل، ووجدنا صعوبة في كبت نوبة ضحك. من حسن حظّنا أنّه لم يكن يعيرنا أدنى اهتمام. كان يحدّق بأعلى الأدراج مخبولاً، وكأنّها اختفت إلى الأبد.

بعد برهة، لم نعد ندري إن كان يتحتّم علينا أن نستأذن. ولم أعد أشعر بأيّ رغبة في الضحك. أكان ذلك بسبب ضوء الردهة الأصفر، واللافتات القديمة على الجدران، التي تشير إلى أنّ ذلك الملهى اللّيليّ كان في ما مضى مسرحاً لمغنّين ساخرين، وبسبب الأبواق المكسيكيّة، وذلك الرجل في بذلة أمير ويلز مع ربطة عنق من جلد الأيّل، الذي تلقّى للتوّ توبيخاً شديداً؟ كان حزن مبهم يخيّم علينا.

خطر لي والدي من جديد. تصوّرته في الوضع ذاته، مرتدياً معطفه الكحليّ، ينتظر خلف باب مقصورة في مكان مماثل لذاك، ملهىً ليليّ ما، قد يكون «كيت كات» أو «كاروسيل»، في جنيف أو لوزان، لا فرق. تذكّرت آخر عيد ميلاد قضيناه معاً. كنت في الخامسة عشرة. جاء لاصطحابي من مدرسة في سافوا العليا، لم يكن بإمكانها إبقائي خلال العطلة.

كانت امرأة تنتظره في جنيف، امرأة تصغره بعشرين عاماً، إيطاليّة شعرها أشقر داكن كالقشّ. استقللنا معاً الطائرة إلى روما. من تلك الرحلة تبقى لي صورة عثرْتُ عليها بعد ثلاثين عاماً، في قعر حقيبة مليئة بالأوراق. صورة تخلّد مشهداً من سهرة رأس سنة في مرْقص قريب من شارع فينيتّو، جرّتنا الإيطاليّة إليه بعد شجار مع والدي: كان بالإمكان سماع أصداء أصوات غاضبة حتّى ممشى الفندق.

جلسا أمام زجاجة شمبانيا موضوعة في سطل. كان بعض الأزواج يرقصون خلفنا. وحول الطاولة، رجل أسمر شعره مسرّح بعناية إلى الخلف، وعلى وجهه تعابير

مرح مفتعل. وإلى جانبه، امرأة في حوالى الثلاثين، وجهها مكسوّ بطبقة كثيفة من المساحيق، شعرها أشقر بلون القشّ منفوش عالياً ومضموم في كعكة، وفتى في بدلة سموكن مستأجرة فضفاضة عليه، نظرته زائغة كنظرة جميع الأطفال الذين يلْفون أنفسهم وسط رفقة رديئة لأنّه لا أحد يأخذ برأيهم ولا يمكنهم بعدُ عيش حياتهم. إن كنت أريد العودة إلى روما، فمن أجل طرد أشباح ذلك الماضي.

- هلّا نغادر؟ سألتني جيزيل.

كان الكلب يتململ. همّ بصعود السلالم، لكن حين تنبّه إلى أنّنا لم نتبعه، عاد ونزل، وتمدّد عند أسفل الدرجات.

خرج غرابلي فجأة من ذهوله.

- لن تذهبا، أليس كذلك؟ سيخيب أمل سيلفيت... ستزداد قسوة...

لكنّني لم أكن أشفق عليه. كان يذكّرني بوالدي، وشعر المرأة الأشقر كالقشّ، وسهرة رأس السنة تلك. صارت لي الحريّة في الذهاب أينما شئت.

- لا يمكننا البقاء يا صديقي، قلت له. عليّ أن أرافق جيزيل إلى سان لو لافوريه.

- ألا ترغبان فعلاً في تناول العشاء معنا؟

كان وجهه القلق يشبه وجه والدي حين ألفينا نفسينا على رصيف شارع فينيتّو. أمامنا، كانت شلّة من المحتفلين تنفخ في أبواق بلاستيكيّة من لوازم الاحتفالات. كانت المرأة ذات الشعر الأشقر كالقشّ تعبس وكأنّها حاردة. وفجأةً، بدأت تسير بخطى سريعة، ثمّ راحت تركض، وكأنّها تريد أن نفقد أثرها. قال لي والدي:

- أسرِع... الحق بها... كن لطيفاً معها... قل لها إنّنا نحبّها كثيراً... إنّنا بحاجة إليها... أعطِها هذا...

ودسّ في يدي حزمة صغيرة مغلّفة بورق فضّي.

هرعْتُ مسرعاً. كنت فتىً صغير السنّ في تلك الفترة. وها أنا أشعر بما يشبه الحزن الممزوج باللّامبالاة حيال ذلك الماضي الذي لا يزال قريباً. لا شيء من كلّ ذلك عادت له أهميّة. لا والدي، ولا غرابلي، ولا ذلك الرجل الذي أرغموه على الصعود في السيّارة قبل قليل. ليذهبوا جميعهم إلى الجحيم.

*

على الرصيف، أحسستُ بي خفيفاً، غير آبه لشيء. وددت لو تشاطرني حالتي. كنت أحيط كتفيها بذراعي ونحن نمشي صوب السيّارة.

كان الكلب يتقدّمنا. اقترحْتُ عليها أن نغادر حالاً إلى روما. لكنّها كانت تركت المال الذي تملكه في إحدى الحقيبتين.

يكفي أن نمرّ برصيف كونتي ونحمّل الحقيبتين في صندوق السيّارة.

- كما تشاء، قالت لي.

ها هي استعادت لامبالاتها، مثلي.

غير أنّ فكرة راودتني، أعادتني إلى الواقع. كنت قاصراً وعليّ الاستحصال على استمارة إذن بالسفر إلى الخارج، وفي أسفلها توقيع والدي. لم أجرؤ على الاعتراف لها بذلك.

- غير ممكن أن نرحل هذا المساء، أجبتها. يجب قبل ذلك أن يعطيني ذلك الإيطاليّ كل المعلومات.

*

كان المسرح في شارع فونتين مغلقاً. أضواء قليلة لا تكاد تُلمَح، في الأعلى. همْنا من غير وجهة في شوارع الحيّ، ثمّ توقّفنا أمام فندق غافارني.

تناولنا العشاء هناك. في البدء، كنت أخشى أن يدخل غرابلي وسيلفيت، لكنّني قلت لنفسي إنّهما يفضّلان الأماكن الأكثر صخباً.

كنّا الزبونين الوحيدين. عرفت الرجل بالسترة البيضاء الذي كان يخدمنا في المرّات النادرة التي تناولت فيها العشاء هناك مع والدتي، مساء يوم الأحد، بعد العرض المسرحيّ.

حين دخلنا، كان يحلّ كلمات متقاطعة، جالساً إلى إحدى الطاولات. تساءلتُ إن كانت الموسيقى منبعثة من مكبّر للصوت في عمق الصالة، أو من مذياع. موسيقى سرياليّة على أوتار القانون.

تمدّد الكلب عند قدميّ. داعبته لأتثبّت حقّاً من وجوده. كنت جالساً قبالتها. ولم تكن عيناي تفارقان عينيها. لامست وجهها بيدي. تملّكني من جديدٍ الخوف من أن تختفي.

اعتباراً من ذلك المساء، صرنا منفصلين عن كلّ شيء. لم يعد أيّ ممّا يحيط بنا حقيقيّاً. لا غرابلي، ولا والدي التائه في سويسرا، ولا والدتي القابعة في مكان ما بجنوب إسبانيا، ولا الناس الذين صادفتهم من غير أن أعرف عنهم شيئاً: أنسار، وجاك دو بافيير... صالة المطعم أيضاً كانت مجرّدة من أيّ واقع، وكأنّها واحد من تلك الأماكن التي ألفناها في ما مضى، ونستعيدها في أحلامنا.

عند الخروج من غافارني، كنا نستقلّ أنا ووالدتي الحافلة 67 في ساحة بيغال، فننزل منها على رصيف اللوفر. كان ذلك قبل ثلاث سنوات، وبات في حياة أخرى... وحده الرجل ذو السترة البيضاء لا يزال في مكانه. وددت لو أكلّمه، لكن ماذا عساه يقول لي؟

- اقرصيني لأرى إن لم أكن أحلم...

قرصتْ خدّي.

- شدّي أكثر.

ضحكتْ. ودوّت قهقهاتها في القاعة المقفرة. سألتها إن كان يخيّل لها هي أيضاً أنّها تحلم.

- أجل، أحياناً.

كان الرجل ذو السترة البيضاء مستغرقاً من جديد في كلماته المتقاطعة. لن يدخل زبائن بعد ذلك الحين.

أمسكَت بيدي وراحت تنظر إليّ بعينيها الزرقاوين الشاحبتين، وعلى وجهها ابتسامة.

رفعَت يدها وقرصت خدّي بقوّة أكثر من قبل.

- استيقظْ...

نهض الرجل وذهب ليشغّل مذياعاً خلف منضدة الشرب. تعالت مقدّمة موسيقيّة، ثمّ صوت مذيع يتلو نشرة إخباريّة. لم أكن أسمع سوى نبرة ذلك الصوت، مثل ضجيج متواصل في الخلفيّة.

- إذن، هل أنت مستيقظ؟

- لا أدري، أجبتها. أفضّل أن أبقى في حيرة.

في مساء أيّام الأحد، في مهجع المدرسة بعد العودة من العطلة، كان الناظر يطفئ الضوء في الساعة التاسعة إلّا الربع، فيأتي النعاس شيئاً فشيئاً. كنت أستيقظ جفلاً خلال الليل، من غير أن أدري أين كنت. الضوء الليليّ الخافت الذي كان يلقي نوراً أزرق على صفوف الأسرّة كان يعيدني بشكل فجّ إلى الواقع. ومنذ ذلك الحين، كلّما

حلمتُ، حاولتُ، وأنا في داخل حلمي، أن أرجئ اللحظة التي سأستيقظ فيها، خشية أن أجدني من جديدٍ في مهجع. حاولت أن أشرح لها ذلك.

- هذا يحصل لي أنا أيضاً أحياناً كثيرة، قالت لي... أخاف أن أستيقظ في السجن...

سألتها لماذا السّجن؟ لكنّها بدت محرجة، وأجابتني في نهاية المطاف:

- هكذا...

حين خرجنا، تردّدْتُ. بدت لي فكرة العودة إلى رصيف كونتي ممضّة. وددت لو نكون معاً في مكان لا يعود يوحي بشيء من الماضي. لكنّها قالت أنْ لا أهميّة لذلك على الإطلاق، طالما أنّنا معاً.

انحدرنا في شارع بلانش. خيّل لي من جديد أنّني أحلم. وكان حلماً يتملّكني فيه إحساس بالجذل. كانت السيّارة تنساب من غير أن أسمع صوت المحرّك، وكأنّها تنزلق على المنحدر في حركة ذاتيّة.

أمامنا انبسطت جادّة الأوبرا بأنوارها وشريطها المقفر. التفتَت صوبي:

- يمكننا أن نرحل غداً إن شئت.

لأوّل مرّة في حياتي، شعرت بأنّ القيود والعقبات التي كانت تكبّلني حتّى ذلك الحين، زالت كلّها. ربّما كان ذلك وهماً سيبدّده الصباح. فتحْتُ النافذة وزاد الهواء البارد من جذلي. لم يكن هناك أيّ ضباب في الجوّ، ولا أيّ هالة حول الأضواء المتلألئة على طول الجادّة.

سلكنا جسر كاروسيل، وفي ذاكرتي، كنّا نتبع رصيف النهر إلى اليسار، غير آبهين لحركة السير في اتّجاه واحد، فنمرّ أمام جسر بون ديزار، ونكمل ببطء، من غير أن تأتي أيّ سيّارة في الاتّجاه المعاكس.

لم يكن غرابلي عاد بعد. عبرنا الردهة، وها هي الشقّة تنفصل عن الماضي. أدخلها لأوّل مرّة. هي التي ترشدني. تصعد أمامي السلالم الصغيرة المؤدّية إلى الطابق الخامس. لم نشعل الضوء في الغرفة.

كانت المصابيح على رصيف النهر ترسم على السقف خيطاً من الضوء صافياً كالذي يرشح في الصيف عبر شقوق السّتائر الخشبيّة. كانت ممدّدة على السرير في تنّورتها وكنزتها السوداوين.

في صباح اليوم التالي، غادرنا الشقّة، ولم يكن غرابلي عاد بعد. قرّرنا أن نعيد السيّارة لأنسار وألّا نعود نراهما فيما بعد، لا هو ولا جاك دو بافيير. كنا نعتزم الرحيل إلى روما بأسرع ما يمكن.

حاولنا الاتّصال بهما عبر الهاتف، لكنّ أحداً لم يجب عند أنسار، ولا في منزل جاك دو بافيير المزعوم. لا يهمّ. كنّا على استعداد لترك السيّارة في شارع رافّيه.

كان نهاراً خريفيّاً مشمساً، كما في اليوم السابق. كنت أشعر بالخفّة والسعادة لفكرة الرحيل. كلّ ما سأتركه خلفي أشياء بدأت تتداعى: غرابلي، الشقّة الفارغة... كان يتحتّم عليّ العثور على الإذن الذي استخدمته في السنة السابقة للقيام برحلة إلى بلجيكا، وسوف أزوّر التاريخ

والوجهة. وفي روما، لا بدّ أن تتاح لي فرصة تسمح لي بالإفلات من الإدارة الفرنسيّة ومن واجباتي العسكريّة.

قالت لي أنْ لا مانع لديها على الإطلاق في مغادرة فرنسا. حاولت أن أستفسر أكثر عن ذلك الزوج الذي كلّمتني عنه.

لم تره منذ وقت طويل، منذ ما يقارب ثلاثة أشهر. تزوّجت بدافع نزوة. لكن من يكون بالضبط؟

نظرَت في عينيّ وقالت لي، وعلى شفتيها ابتسامة محرَجة:

- آه، رجل غريب عجيب... إنّه يهتمّ بسيرْك...

تساءلتُ إن كانت تمزح أو تقول الحقيقة.

بدت في ترقّب، تترصّد ردّ فعلي.

- سيرْك؟

- أجل، سيرْك...

غادر في جولة مع ذلك السيرْك، لكنّها لم تشأ أن تتبعه.

- من المزعج أن أتكلّم عن كلّ هذا...

حلّ الصمت بيننا، إلى أن وصلنا أمام المبنى في شارع رافّيه.

طرقْنا باب الشقّة. لم يجب أحد.

- ربّما هم في المطعم، قالت جيزيل.

كانت امرأة تراقبنا من مدخل الفناء. اقتربت منّا.

- هل تبحثان عن شخصٍ ما؟

كانت نبرتها جافية، وكأنّها مرتابة منّا.

- السيّد أنسار، قالت جيزيل.

- السيّد أنسار غادر باكراً هذا الصباح. عهد إليّ بمفاتيح شقّته. لن يعود قبل ثلاثة أشهر.

إنّها إذن حارسة المبنى.

- ألم يقل لك أين هو ذاهب؟ سألت جيزيل.

- لا.

- ولا يمكننا أن نراسله على عنوان ما؟

- قال إنّه سيرسل لي كلمة ليعطيني عنوانه الجديد. إن أردتما مراسلته، فعليكما أن تودعا الرسالة عندي.

كانت نبرتها لانت قليلاً. تبعَتْنا بنظرها ونحن نعبر الفناء مع الكلب. بدا عليها أنّها تعتبر رحيل «السيّد أنسار» أمراً طبيعيّاً. لكن في نهاية الأمر، ستراودها حتماً تساؤلات حول ذلك الرجل الذي يُظهر دماثة وحسن سلوك. ثمّ

سيأتي الآخرون الذين سيطرحون عليها أسئلة، ربّما في المكتب حيث تمّ استجوابنا، أنا وجيزيل. سوف يطلبون منها أن تتذكّر أدنى تفصيل يتعلّق بأنسار، والزيارات التي كان يتلقّاها. وستتذكّر أنّه بعد اختفائه، دقّ شابّ وفتاة معهما كلب على باب الشقّة.

- ماذا نفعل بالسيّارة؟ سألت جيزيل.

- نحتفظ بها.

فتّشَت في علبة القفّازات، وأخرجت بطاقة تسجيل السيّارة. كانت باسم بيار لوي أنسار، مواليد 22 يناير 1921، باريس الدائرة العاشرة، مقيم في 14 شارع رافّيه، باريس الدائرة السادسة عشرة.

كنّا نسير بمحاذاة غابة بولونيا، سالكَين الطريق الذي تبعناه السبت لتناول الغداء في مطعم أنسار. كنت أحتفظ ببطاقة التسجيل في يدي. سلكنا شارع ليه بيل فوي. كان المطعم مقفلاً. والواجهة مغلقة بألواح خشبيّة مكسوّة بطلاء أخضر متقشّر، تعود حتماً إلى الحقبة التي كان فيها «ليه بيل فوي» مقهى ومحلّ فحم، مثلما قال أنسار.

هذه المرّة، بدت قلقة. لا بدّ أنّ هناك رابطاً بين اختفاء

أنسار المفاجئ وما حصل في اليوم السّابق في نويّي، والذي كنّا أكثر من شاهدَين عليه.

- هل تظنّين أنّ جاك دو بافيير رحل أيضاً؟ سألتها.

هزّت كتفيها. استرجعْتُ وجه مارتين، وصورتها تلوّح لنا بذراعها ونحن نعبر الفناء الليلة الماضية.

- ومارتين؟ هل يمكننا الاتّصال بها في مكان ما؟

كانت لا تكاد تعرف شيئاً عن مارتين، سوى أنّها تعيش مع أنسار منذ عدّة سنوات. كلّ ما تذكره كان اسمها: مارتين غول.

انتهى بنا الأمر في مقهى في شارع سبونتيني، حيث طلبنا شطيرتين وكوبين من عصير البرتقال. أخرجَتْ مفكّرة صغيرة من حقيبة يدها، وطلبت منّي أن أتّصل بشارع واشنطن لمعرفة ما إذا كان جاك دو بافيير لا يزال هناك.

- آلو... نعم؟

إنّها امرأة تتكلّم بصوت خفيض. هل هي ذاتها التي استقبلتنا مساء السبت؟

- أودّ التحدّث إلى جاك دو بافيير...

- ومن حضرتك؟

كانت النبرة جافّة، نبرة شخص مترصّد.

- نحن صديقان لجاك. جئنا مساء السبت...

- جاك غادر إلى بلجيكا.

- لوقت طويل؟

- لا يسعني أن أؤكّد ذلك.

- هل أنّ السيّد أنسار غادر معه؟

حلّ الصمت للحظة. حتّى أنّني خلت أنّ الاتّصال انقطع.

- لا أعرف ذلك السيّد. آسفة، لكن عليّ أن أتركك.

أغلقت الخطّ.

هكذا إذن، رحلا معاً. واصطحبا مارتين معهما على الأرجح. إلى بلجيكا، أو مكان آخر. ما السبيل للتثبّت من الأمر؟

- هل أنتِ واثقة من أنّه يدعى دو بافيير؟ سألتُ جيزيل.

- أجل. دو بافيير.

ما الجدوى من ذلك؟ لا شكّ أنّه غير مدرج في دليل

الهاتف، ولا هو معروف في «الغوتا»[1]، مثلما يوحي به ذلك الاسم.

قالت لي إنّها تودّ الذهاب إلى مكان آخر، حيث تكون لنا فرصة، ولو ضئيلة، في الحصول على أخبار عن أنسار. قادت بنا السيّارة عبر الجادّات الكبرى. لم تعطني أيّ تفسير. وصلنا إلى ساحة لا ريبوبليك، وسلكنا جادّة تومبل، ثمّ توقّفنا في شارعٍ موازٍ لها، عند الأسفل بعض الشيء. أمامنا كان مركز «لو سيرْك ديفير»[2].

أشارت لي إلى مقهى على مقربة في الشارع، على مسافة حوالى خمسين متراً.

- اذهب واسأل الرجل خلف المنضدة عن أخبار السيّد أنسار...

لماذا لا ترافقني إلى هناك؟

مشيت في الشارع والتفتّ لأرى إن كانت لا تزال

---

(1) *Le Gotha*: دليل قديم ووظب على نشره من 1763 حتّى 1944، يجمع أسماء العائلات النبيلة والملكيّة الأوروبيّة. وتوسّعاً صار الاسم يشير إلى الانتماء إلى طبقة النبلاء في أوروبّا.

(2) Le Cirque d'Hiver أو «سيرْك الشتاء»، مركز استعراضات في باريس شيّد عام 1852 وتقدّم فيه عروض سيرك بشكل أساسيّ، فضلاً عن عروض غنائيّة وغيرها.

هناك. خطر لي أنّها تنتظر أن أدخل المقهى حتّى تختفي مثل الآخرين.

لم يكن للمقهى اسم، بل كانت واجهته تحمل علامة جعة بلجيكيّة. دخلت. في عمق الصالة الصغيرة، بضع طاولات يجلس إليها الزبائن يتناولون الغداء.

خلف منضدة الشرب، كان يقف رجل أسمر طويل القامة، أنفه أفطس قليلاً ويرتدي بذلة كحليّة. كان يتكلّم على الهاتف. جلست أنتظر. اقترب نادل يرتدي سترة حمراء قانية.

- ربع زجاجة فيتيل[1].

طالت المكالمة الهاتفيّة. كان الرجل يستمع الى محاوره ويجيب بين الحين والآخر قائلاً «نعم... نعم... حسناً...» أو مطلقاً همهمة قصيرة للموافقة. حشر السمّاعة بين كتفه وخدّه ليشعل سيجارة، ووقع نظره عليّ، لكنّني لم أدرِ إن كان يراني. أقفل الخطّ.

قلت له بصوت خجول:

- هل لديك أخبار عن السيّد أنسار؟

---

(1) ماء معدنيّ.

ابتسم لي. لكنّني أحسست بأنّ ابتسامته ظاهريّة فقط، وأنّه يضع مسافة بيني وبينه.

- هل تعرف السيّد أنسار؟

كان لصوته نبرة توحي بالفتوّة، ذكّرني بصوت الممثّل جان ماريه. جاء وانضمّ إليّ في الجانب الآخر من المنضدة، متّكئاً إليها.

- أجل أعرفه، وأعرف أيضاً مارتين غول.

لماذا أضفت هذا التفصيل؟ ربّما لأوحي له بالثقة؟

- مررت هذا الصباح بشارع رافّيه، ووجدتهما غادرا.

كان يحدّق بي بنظرةٍ ودود، والابتسامة لا تزال على وجهه. كانت بذلته الأنيقة وصوته يتباينان وذلك المقهى. هل كان فعلاً صاحب المكان؟

- غادرا، لكنّهما سيعودان حتماً. هذا كلّ ما يسعني أن أقوله لك.

انشرحت ابتسامته أكثر ونظر إليّ نظرة جعلتني أفهم فعلاً أنّه لن يقول لي المزيد.

هممت بدفع ثمن زجاجة الماء، لكنّه قام بإشارة بيده.

- لا... دعك من ذلك...

فتح لي الباب بنفسه ووجّه لي إشارة طفيفه برأسه مستودعاً. كان لا يزال يبتسم.

في السيّارة، سألتني جيزيل:

- ماذا قال لك؟

لا بدّ أنّها كانت تعرف ذلك الرجل بابتسامته الأزليّة. التقت به حتماً برفقة أنسار وجاك دو بافيير.

- قال لي إنّهما عائدان بالتأكيد، لكنّه لم يُبدِ استعداداً لإعطائي تفاصيل.

- لا يهمّ. في مطلق الأحوال، لن نراهما بعد الآن. سنكون في روما.

تبعنا الجادّة حتّى ساحة الباستيل. لم نكن بعيدَين عن محلّ ديلّافيرسانو. فاقترحت على جيزيل أن نمرّ به لنستوضح تفاصيل رحلتنا.

- هل سبق أن دخلتِ ذلك المقهى الذي قصدناه؟ سألتها.

- أجل، أحياناً كثيرة.

تردّدَت، ثمّ قالت لي كأنّما على مضض:

- كان ذلك حين كان زوجي يعمل في السيرْك ديفير.

صمتَت. فكّرت في الرجل بالبذلة الكحليّة. كان لابتسامته وقع شديد في نفسي، وكنت لا أزال أذكرها بعد عشر سنوات، حين ألفيتني بالصدفة ذات عصر قرب السيرك ديفير. لم يسعني أن أقاوم الدخول إلى ذلك المقهى. كان ذلك قرابة العام 1973.

كان واقفاً خلف المنضدة، أقلّ أناقة من المرّة الأولى، وقد ظهرت آثار الزمن على ملامحه وشاب شعره. على الجدار أُلصقت صور كثيرة، بعضها موقّعة، يظهر فيها فنّانون من السيرك ديفير كانوا من روّاد المقهى.

لفتَت انتباهي إحدى الصور، أكبر حجماً من سواها. تظهر فيها مجموعة كبيرة من الأشخاص أمام منضدة الشرب، متحلّقين حول امرأة شقراء ترتدي سترة فروسيّة. وبينهم، عرفت جيزيل.

طلبْتُ ربع زجاجة فيتيل، كما في أوّل مرّة.

كنّا وحيدين، أنا وهو، في تلك الساعة الهادئة من العصر. سألته دون مقدّمات:

- هل كنت تعرف تلك الفتاة؟

انضممت إليه خلف منضدة الشرب وأشرت له إلى

جيزيل في الصورة. لم يُبْدِ أيّ دهشة على الإطلاق لبادرتي.

انحنى صوب الصورة.

«آه أجل، عرفتها... كانت شابّة جدّاً... كانت تقضي أمسياتها هنا... زوجها كان يعمل في السيرك... وهي كانت تنتظره... كانت تبدو سئمة على الدوام... لا بدّ أنّ ذلك يعود إلى عشر سنوات...

- لكن ماذا كان يعمل زوجها؟

- لا بدّ أنّه كان من طاقم السيرك. كان يكبرها بالسنّ.

شعرت أنّه سوف يجيب على كلّ أسئلتي إن استجوبته في أيّ شيء. كنت لا أزال شابّاً في ذلك الحين، وكنت أبدو خجولاً ومؤدّباً. وهو كان يرغب على الأرجح في التحدّث إلى أيٍّ كان لقضاء تلك الفترة الموحشة في ساعات العصر الأولى من أيّام الصيف.

بدا لي سهل المراس أكثر بكثير منه قبل عشر سنوات. فهو فقد لغزه، أو بالأحرى اللّغز الذي نسجته بنفسي حوله. الرجل الرشيق بالبذلة الكحليّة لم يعد سوى صاحب مقهى في شارع آمْلو، يكاد يكون مالك حانة قديمة تبيع الفحم.

- هل عرفت سيّداً يدعى بيار أنسار؟

رمقني بدهشة، واستعاد وجهه الابتسامة الزائفة ذاتها كما في الماضي.

- لماذا؟ هل عرفت بيار أنت؟

- الفتاة هي التي قدّمته لي قبل عشر سنوات.

كان مقطّباً.

- الفتاة في الصورة؟... لا بدّ أنّ بيار التقاها هنا... كان يتردّد كثيراً على المكان هنا لرؤيتي...

- وثمّة رجل أصغر سنّاً، كان اسمه جاك دو بافيير، هل يوحي لك هذا الاسم بشيء؟

- لا.

- كان صديقاً لأنسار.

- لم أعرف جميع أصدقاء بيار...

- ألا تعرف ماذا حلّ به؟

تلك الابتسامة من جديد.

- بيار؟ لا. في مطلق الأحوال، لم يعد في باريس.

بقيت صامتاً. كنت أنتظر أن يتفوّه بالجملة التي قالها لي في المرّة الأولى: إنّهما رحلا، لكنّهما سيعودان حتماً.

كانت الشمس تنسلّ من الباب الموارب، راسمةً بقعاً فاتحة على الجدران والطاولات المقفرة، في قعر الصالة.

- إذن كنت صديقاً مقرّباً لأنسار؟

اصطبغت نظرته وابتسامته بالسخرية.

- تعرّفت عليه عام 1943. وفي السنة ذاتها، أرسلونا كلينا إلى سجن بواسّي المركزيّ... أترى؟ المسألة تعود إلى زمن بعيد...

بقيت صامتاً. فأضاف:

- لكن لا تسيء الظنّ فينا... الكلّ معرّض لارتكاب أخطاء في شبابه...

وددت لو أقول له إنّني سبق أن جئت قبل عشر سنوات لأسأله عن أخبار أنسار، وإنّه لم يشأ أن يجيبني. كان لا يزال هناك في ذلك الزمن أسرار ينبغي الحفاظ عليها.

لكن كلّ ذلك بات من الماضي، ومع الوقت، فقد من أهميّته.

- وما زلت تقابل الفتاة؟

فاجأني ذلك السؤال كثيراً، فتمتمت بجواب مبهم:

وبعدما صرت وحيداً في الجادّة، أجهشتُ في البكاء من غير سبب.

وصلنا إلى نهر السين وتبعنا رصيف سيليستان. اكتشفت وأنا أنقّب في جيبي بحثاً عن علبة سجائر، أنّني احتفظت ببطاقة تسجيل سيّارة أنسار.

- هل يمكنك حقّاً الاعتماد على ذلك الرجل الذي نقصده؟ سألتني جيزيل.

- أجل، أعتقد أنّه يكنّ لي الكثير من المودّة.

الواقع أنّني حين أفكّر في الأمر اليوم، يتبيّن لي بوضوح أكبر مدى العطف الذي كان يبديه لي ديلّافيرسانو. تعاطف معي حين علم بوضعي العائليّ، إن كان من الممكن استخدام هذه الصفة حين يكون والداك يهملانك تماماً. في أوّل مرّة زرته، طرح عليّ بعض الأسئلة حول دراستي، ونصحني بمواصلتها، معتبراً حتماً أنّ فتى

متروكاً وحيداً قد ينتهي به الأمر في الضلال. كان يرى أنّني أكثر جدارة من أن أكتفي ببيع قطع أثاثٍ خلسةً عند باعةِ سقطٍ في حيّ سان بول. اعترفت له بأنّني أحلم بالكتابة، وأثرت إعجابه حين أخبرته أنّ كتابي المفضّل كان مجموعة مراسلات ستندال بعنوان «إلى النّفوس الرقيقة»[1].

كان جالساً خلف مكتبه، في عمق المتجر. تأمّل جيزيل والكلب بدهشة.

قدّمت له جيزيل على أنّها شقيقتي.

- لديّ كلّ المعلومات التي تحتاج إليها، بادرني قائلاً.

لم يكن عملي في روما عند زميله صاحب المكتبة يبدأ إلّا بعد شهرين.

- كنت تفضّل الرحيل حالاً؟

لم أجرؤ على القول له إنّ لدينا سيّارة، وإلّا فسوف يتوجّب عليّ أن أبرز له بطاقة التسجيل باسم أنسار وشرح المسألة برمّتها له. في مناسبة أخرى ربّما... لكنّني فاتحته برغبتي في الرحيل مع جيزيل. هل صدّق فعلاً أنّها شقيقتي؟ لم تظهر على ملامحه أيّ ملامة. التفتَ إليها بكلّ

(1) *Aux âmes sensibles* للكاتب الفرنسي ستندال Stendhal.

ببساطة قائلاً:

- هل أنت مستعدّة للبحث عن عمل في روما؟

سألها عن عمرها، فأجابت: واحد وعشرون عاماً.

كان يعرف عمري أنا، وحبست أنفاسي خشية أن يذكر الأمر أمام جيزيل.

- أعرف حتّى عنوانكَ هناك... يمكنني إن أردت أن أطلب من هذا الصديق أن تقيما في المكان قبل الموعد المرتقب...

شكرته. هل يمكن لشقيقتي أن تقيم معي في ذلك المكان؟

نظر إلينا بإمعان، الواحد تلو الآخر. أيقنت أنّه يبحث عن شبَه جسديّ بيننا من غير أن يجده.

- دعنا نرى... قال لي. هل تحسن شقيقتك الضرب على الآلة الكاتبة؟

- أجل، أجابت جيزيل.

كنت واثقاً من أنّها تكذب. لم يكن بوسعي تصوّرها جالسة أمام آلة كاتبة...

- سوف يحتاج صديقي إلى من يضرب على الآلة

الكاتبة بالفرنسيّة... سأتّصل به هذا المساء لأطلب منه توضيحات.

نهض وعرض علينا أن نذهب لتناول فنجان قهوة معاً.

عبرنا أمام السيّارة، لكنّني لم أقل شيئاً، وتواطأت جيزيل مع صمتي. غداً أشرح له من دون إبطاء ما حصل لنا. لم يكن من حقّي أن أخفي شيئاً عن ذلك الرجل الذي أظهر لنا كلّ هذه الرعاية.

سألني كم من الوقت أستطيع أن أبقى بعد في الشقّة على رصيف كونتي.

- ثلاثة أسابيع على أبعد تقدير...

لم يكن يفهم كيف يمكن لوالد ووالدة أن يتخلّيا بالكامل عن فتىً مولع بالأدب، كتابه المفضّل يحمل عنوان «إلى النّفوس الرقيقة». وما كان يذهله أكثر، أنّني كنت أرى سلوك والديّ طبيعيّاً تماماً، وأنّه لم يخطر لي حتّى أن أترقّب منهما أيّة مساعدة.

- ينبغي إذن أن تكون مقيماً في روما في غضون ثلاثة أسابيع، وأن تقيم شقيقتك معك...

أحسست من طريقته في لفظ كلمة «شقيقتك» أنّ

الكذبة لم تنطلِ عليه.

- وهل شقيقتك تحبّ الأدب مثلك؟

بدت جيزيل محرجة. فنحن لم نتطرّق مرّة إلى الأدب منذ التقينا.

- إنّني أدفعها لقراءة «إلى النّفوس الرقيقة»، أجبت.

- وهل أحببتِ الكتاب؟ سألها ديلّافيرسانو.

- كثيراً.

ابتسمَتْ له ابتسامة فاتنة. كانت الشمس تشعّ، وكان الهواء دافئاً لمثل ذلك الفصل. جلسنا حول الطاولة الوحيدة المتبقّية على رصيف المقهى. دقّت ساعة كنيسة سان جيرفيه معلنةً عن الظهر.

- هل تعرف عنواننا المقبل في روما؟ سألتُه.

أخرج ديلّافيرسانو من جيبه الداخليّ ظرفاً.

- إنّه الرقم 7، شارع فريسكوبالدي.

والتفت صوب جيزيل:

- هل تعرفين روما؟

- لا، قالت.

- إذن لم تكوني مع شقيقك حين قضى ليلة رأس السنة

هناك وهو في الخامسة عشرة؟

كان يبتسم لها وبادلته الابتسامة.

- وشارع فريسكوبالدي هو في أيّ حيّ؟ سألْتُ.

- سأشرح لك.

رسم بقلم حبر جافّ على الظرف خطّين متوازيين.

- هذا هو شارع فينيتّو... أنت تعرف شارع فينيتّو...

كنت رويت له كيف حاولت بأمر من والدي أن ألحق بتلك المرأة ذات الشعر الأشقر بلون القشّ والوجه المكسوّ بطبقة كثيفة من المساحيق، حين أخذَت تركض أمامنا.

- تتبع شارع بينشيانا، مروراً أمام حدائق فيلّا بورغيزي[1]...

واصل رسم خطوط على الظرف، مشيراً لنا إلى الطريق برأس قلمه.

- تنعطف يساراً مواصلاً طريقك بمحاذاة فيلّا بورغيزي، فتصل إلى شارع فريسكوبالدي... العنوان هنا...

---

(1) Villa Borghese حديقة طبيعية واسعة في روما تضم عدداً من المباني والمتاحف، وهي ثالث أكبر حديقة عامّة في روما.

رسم صليباً.

- حسنة هذا الحيّ هو أنّك محاط فيه بالخضرة... شارعك قريب جدّاً من حديقة الحيوانات...

كنّا كلانا مسمّرين إلى المخطّط الذي رسمه، عاجزين عن تحويل أنظارنا عنه. كنت أمشي مع جيزيل في الصيف تحت الأشجار الظليلة في شارع فريسكوبالدي.

على رصيف كونتي، وجدت رسالة تركها غرابلي على كنبة المكتب:

عزيزي أوبليغادو،

تلقّيت اتّصالاً لك قرابة الساعة الثانية من العصر. رجل يدّعي أنّه من الشرطة. ترك اسمه: سامسون، ورقم هاتف يمكنك الاتّصال به عليه: توربيغو 92–00.

آمل ألّا يكون لديك ما تلوم نفسك عليه.

انتهت السهرة أمس بأفضل ممّا كنت أتوقّع وأسفنا لعدم وجودكما معنا. هل تودّان الانضمام إلينا هذا المساء من جديد في الملهى اللّيليّ «لا تومات» لوصلة الساعة العاشرة والربع؟

مع تحيّاتي

غرابلي

سألْتُ جيزيل إن كان يتعيّن الاتّصال حالاً لاستيضاح ما يريده ذلك الرجل. لكنّنا قرّرنا أنّه يعود له هو نفسه أن يعاود الاتّصال.

انقضى العصر في ترقّب، وكان كلّ منّا يحاول التغلّب على توتّره. دعكْتُ ومزّقْتُ رسالة غرابلي حيث كتب: «آمل ألّا يكون لديك ما تلوم نفسك عليه.»

- هل تعتقدين أنّهم يعلمون بما فعلنا عصر أمس؟

هزّت جيزيل كتفيها وابتسمت لي. كانت تبدو أكثر هدوءاً منّي. فرشنا خارطة روما أرضاً، وحاولنا التآلف والحيَّ من خلال حفظ أسماء الشوارع والأنصاب والكنائس الواقعة على مقربة من منزلنا المقبل: بورتا بينشيانا[1]، كنيسة سانتا تيريسا، معبد إسكولابيو[2]، المتحف الكولونياليّ... لن يكون بوسع أحدٍ العثور علينا هناك.

---

(1) Porta Pinciana إحدى بوّابات روما في الأسوار الأوريليّة المحيطة بالمدينة، شيّدت عام 403.

(2) Tempio di Esculapio معبد روماني يعود الى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد، شيّد على جزيرة تيبيرينا في قلب روما.

بعد وقت، بدأ المساء يهبط، ونحن ممدّدان على الكنبة. نهضَت وارتدت تنّورتها وكنزتها السوداوين.

- سأخرج لأشتري سجائر.

كانت تفضّل أن أبقى هناك لأردّ على الهاتف. طلبْتُ منها أن تشتري أيضاً صحيفة مسائيّة.

تأمّلتها من النافذة. لم تستقلّ السيّارة. كانت تمشي بخمول، وقد دسّت يديها في جيبَي معطفها الواقي من المطر الذي أهملت تزريره.

ثمّ توارت عند زاوية مبنى «لا مونيه».

عدت وتمدّدت على الكنبة. حاولت أن أتذكّر قطع الأثاث التي كانت تملأ المكتب في ما مضى.

رنّ الهاتف. سمعت صوتاً مكتوماً، متباطئاً بعض الشيء.

- أتّصِل بك من قِبل السيّد سامسون الذي طلب منك بعض المعلومات الخميس الماضي. ثمّة فتاة تمّ استدعاؤها بعدك مباشرة... التقيتها لاحقاً في مقهى سولاي دور...

توقّف لحظة. لكنّني لم أقل شيئاً. شعرت بي عاجزاً عن

التفوّه بأدنى كلمة.

- قضيتما الأيّام الأربعة الأخيرة معاً، وهي تقيم في شقّتك... أودّ أن أحذّرك...

كان المكتب غارقاً في ظلمة شبه تامّة، وهو يواصل الكلام بصوته الكتيم.

- أنت تجهل أموراً كثيرة بشأن هذه الفتاة... أفترض أنّها كذبت عليك حتّى حول اسمها... اسمها سوزان كراي...

وجعل يتهجّى الاسم بنبرة آليّة: ك.ر.ا.ي. خيّل لي أنّني أسمع صوتاً مسجّلاً على أسطوانة، مثل صوت الساعة الناطقة.

- سبق أن ارتكبَتْ بعض الجُنَح التي جعلتها تقضي عدّة أشهر في لا بتيت روكيت[1]... لكنّ هذا تفصيل أخفته عنك، على ما أظنّ... لا شكّ أنّها أخفت عنك أيضاً أنّها متزوّجة...

- أنا على علم بذلك، أجبت بنبرة أردتها جافّة.

---

(1) La Petite Roquette سجن للقاصرين تحوّل بعد عام 1923 إلى سجن للنساء قبل إغلاقه عام 1974.

لحظة صمت.

- لعلّك لست على علم تماماً.

- هذا لا يهمّني، أجبته.

- لكنّه يهمّني أنا، ثمّ أنت تنسى أنّك قاصر...

عاد الصوت من جديد مكتوماً، نائياً.

- وأنّك تقوم بمجازفة خطيرة...

كنت أسمع تشويشاً على الخطّ، وكأنّه يكلّمني من الطرف الآخر من العالم. لكنّ التشويش توقّف وردني الصوت قريباً وواضحاً جدّاً.

- أودّ أن ألتقيك على وجه السرعة حتّى نضع النقاط على الحروف. هذا في مصلحتك أنت. ينبغي أن تطّلع على المخاطر التي تعرّض نفسك لها لكونك قاصراً... هل أنت موافق على ملاقاتي؟

قال الجملة الأخيرة بنبرة فيها مداهنة وسطوة في آنٍ، مثل بعض الناظرين في المدارس.

- حسناً، قلت له.

- هذا المساء، الساعة العاشرة، على مقربة من منزلك... في المقهى القائم على رصيف النهر، مقابل واجهة

قصر اللوفر ذات الأعمدة... يمكنك رؤيته من نوافذك... أنتظرك بالتأكيد في الساعة العاشرة... اسمي السيّد غِيلان.

تهجّى اسمه، ثمّ أقفل الخطّ.

أقفلت بدوري. صوته أوحى لي قبل أن يعرّف بنفسه برجل كنت أصادفه السبت حين أذهب إلى حديقة لوكسمبورغ أو إلى سينما دانتون. يكون مرتدياً بذلة رياضيّة رماديّة، وخارجاً من صالة رياضيّة. أشقر أربعينيّ، شعره قصير وخدّاه منخسفان. كلّمني في عصر أحد الأيّام، في واحد من تلك المقاهي الكئيبة عند مفرق الأوديون. كان كاتباً وصحافيّاً. قلت له إنّ بودّي أنا أيضاً أن أكتب، في وقت لاحق. ابتسم لي عندها ابتسامة فيها ازدراء.

- عمل مضنٍ، أتدري؟... عمل مضنٍ... لن تفلح بالتأكيد...

وذكر لي مثَل راقص شابّ شهير يكنّ له الإعجاب، كان «يقوم بتمارين على العارضة على على مدار اليوم؟».

- تلك هي الكتابة، أتدري؟... أربع وعشرون ساعة من التمرين في اليوم... أشكّ في أن تكون لديك

مثل هذه العزيمة الشديدة... لا داعي حتّى لأن تحاول.

كاد يقنعني.

- بوسعي أن أعرض عليك كيف أكتب...

حدّد لي موعداً في منزله، في شارع دراغون. شقّة من غرفتين، جدرانها مطليّة بالأبيض، وعارضات من الخشب الداكن اللّون، ومكتب بسيط من الطراز الريفيّ باللّون ذاته، ومقاعد صلبة جدّاً وعالية الظهور. كان يرتدي بذلته الرياضيّة. وقّع لي كتاباً نسيت عنوانه. فاجأني إذ نصحني بقراءة «الصبايا» لمونترلان[1]. ثمّ أصرّ على أن يرافقني إلى شقّتي في سيّارته، سيّارة دوفين غورديني. في الأشهر التالية، رأيت مراراً من نافذتي تلك السيّارة الزرقاء ذات الخطوط البيضاء متوقّفة أمام المبنى في اللّيل. وكنت أشعر بالخوف.

ألقيت نظرة لأرى إن لم تكن هناك بالصدفة اليوم. لكنّني لم ألمحها. الصمت. كان اللّيل هبط. كنت أفضّل انعكاسات المصابيح على الجدران، على النور الكامد

(1) *Les Jeunes Filles* للكاتب الفرنسي مونترلان Montherlant.

المنبعث من المصباح المتدلّي من السقف. عاودني القلق من جديد، خشية ألّا تعود جيزيل. الصوت الذي سمعته على الهاتف كان يزيد من شعوري بالعزلة والوحشة. كان ينسجم تماماً وذلك المكتب حيث يصعب عليّ أن أتذكّر موقع كلّ من قطع الأثاث.

لا بتيت روكيت... تسكّعت في أحد الأيّام في الشارع الذي يحمل الاسم ذاته، وعبرت أمام مبنى السجن. في أحلامي، غالباً ما يفضي شارع لا روكيت إلى ساحة شبيهة بكثير من ساحات روما، وفي وسطها نافورة. نكون دائماً في الصيف. الساحة مقفرة، ترزح تحت لهب الشمس. وأنا هناك، في الظلّ، واقفاً أنتظر أن تخرج جيزيل من السجن.

سمعت صفقة باب المدخل وعرفت وقع خطاها. ها هي، أمامي، في معطفها المفكوك الأزرار. أشعلَت الضوء وقالت لي إنّني أبدو غريباً.

- اتّصل الرجل.

- وما المسألة؟

قلت لها إنّه يريد معلومات عن والدي وإنّه حدّد لي موعداً في المساء ذاته، عند الساعة العاشرة، في المقهى

المقابل، من الجانب الآخر من السين.

- لن يستغرق الأمر طويلاً.

أمسكْتُ وجهها بين يديّ وقبّلتها. لا همّ إن كان اسمها جيزيل أو سوزان كراي، أو أن تكون دخلت سجن لا بتيت روكيت. لو عرفتها في تلك الفترة، لما أهدرت فرصة لزيارتها في ردهة السجن. وحتّى لو ارتكبتْ جريمة، لما اكترثْتُ، طالما أنّها حيّة، لصقي، في تنّورتها وكنزتها السوداوين.

- ألا تخشى أن يأتي ويباغتنا؟ همَسَتْ في أذني.

ظننتها في بادئ الأمر تتكلّم عن الرجل الذي اتّصل. لكنّها كانت تقصد غرابلي.

- لا، لا تخافي. إنّه في لا تومات...

رغم ذلك، جررنا الكنبة وألصقناها بباب المكتب حتّى تمنع فتحه.

كنت أرى ضوء المقهى يشعّ في الضفّة الأخرى من نهر السين، عند زاوية الرصيف. أتُراه وصل الرجل؟ وددت امتلاك منظار قويّ حتّى أراقبه. كان بوسعه هو أيضاً من المقهى أن يتحقّق ممّا إذا كان الضوء مشتعلاً خلف نوافذ الشقّة. وذلك الخاطر بعث فيّ شعوراً مفاجئاً بالقلق، وكأنّ فخّاً يطبق عليّ.

- ماذا تتأمّل؟

كانت ممدّدة على الكنبة. وتنّورتها وكنزتها مرميّتان في وسط الطاولة الخفيضة.

- أنتظر مرور المركب النهريّ، أجبتها.

فتحتُ النافذة قليلاً. كان رصيف كونتي يفرغ من السيّارات لفترة من الوقت، إلى أن ينتقل الضوء إلى

الأخضر هناك، على مستوى جسر بون نوف. وقبل أن تظهر السيّارات النادرة من جديد، كان يخيّم صمت، لعلّه الصمت ذاته الذي عرفه والدي في ليالي الاحتلال، خلف تلك النافذة ذاتها.

في تلك الفترة، لم يكن المقهى في الجهة المقابلة مضاءً، وأعمدة اللوفر كانت غارقة في الظلام. المغنم بالنسبة إلى ذلك الزمن، هو أنّني صرت أعرف أين يكمن الخطر: ذلك النور في الجانب الآخر من السّين.

- عليّ أن أذهب إلى الموعد.

نظرتُ إلى ساعتي: كانت العاشرة إلّا ربعاً.

جلسَتْ على حافّة الكنبة، مسندةً ذقنها على راحتي يديها.

- هل أنت مضطرّ إلى الذهاب؟

- إن لم أذهب الآن، فسوف يعاود هذا الرجل الاتّصال... يجدر أن أتخلّص منه حالاً.

كرّرتُ على مسمعيها أنّه شريك سابق لوالدي. كان بودّي أن أقول لها الحقيقة. لكنّني تمالكت نفسي في الوقت المناسب. فضّلتْ مرافقتي على أن تبقى وحيدة في الشقّة.

خرجنا مع الكلب. ظنّت أنّنا سنمشي حتّى المقهى عبر جسر بون ديزار. لكنّني قلت لها إنّ من الأفضل أن نستقلّ السيّارة.

عند سلوك جسر كاروسيل، كدت أن أطلب منها مواصلة السير أماماً وبلا توقّف على طول أرصفة النهر. ثمّ بعدما انتقلنا إلى الضفّة اليمنى، ومع اقترابنا من المقهى، رحت أعلّل نفسي بالمنطق. صرت جاهزاً لذلك اللقاء، لا بل متلهّفاً لرؤية وجه ذلك الرجل.

توقّفنا عند زاوية رصيف النهر وشارع اللوفر، أمام مدخل المقهى. كان هناك زبون واحد جالساً على رصيف المقهى. كان يقرأ صحيفة مفروشة على الطاولة، ولم يلاحظ سيّارتنا. أحسست بيد جيزيل تضغط على ذراعي. كانت تحدّق بالرجل، مرخيةً فمها، وقد امتقع وجهها.

- لا تذهب، جان... أتوسّل إليك.

ذُهلت لسماعها تناديني باسمي. كانت تشدّني من ذراعي لاستبقائي.

- لماذا؟ هل تعرفينه؟

كان يواصل قراءة صحيفته، تحت ضوء النيون. وقبل

أن يقلب كلّ صفحة، كان يرطّب سبّابته بلسانه.

- إن ذهبتَ إلى الموعد، لَقُضيَ علينا... سبق أن قابلتُه...

كانت قسمات وجهها متشنّجة تحت وطأة الهول. أمّا أنا، فكنت في غاية الهدوء. داعبت جبينها وشفتيها بعذوبة. كنت أودّ أن أقبّلها وأهمس لها كلاماً يهدّئ من روعها. قلت لها فقط:

- لا تخافي... هذا الرجل لا يسعه أن يفعل شيئاً حيالنا...

حاولَت استبقائي من جديد، لكنّني فتحت الباب وخرجت من السيّارة.

- انتظريني هنا... وإن طالت المسألة، عودي إلى الشقّة.

لأوّل مرّة في حياتي، كنت واثقاً من نفسي. خجلي، وشكوكي، وتلك الخصال التي تجعلني أعتذر عن أدنى حركة أقوم بها، وأحطّ من قدر نفسي، وأناصر الآخرين في غالب الأحيان على ذاتي، كلّ ذلك تبدّد مثل جلدٍ ميّت يسقط. كنت في واحد من تلك الأحلام حيث تعترضنا

مخاطر الحاضر ومحَنه، غير أنّنا نتفاداها في كلّ مرّة لأنّنا نعلم المستقبل مسبقاً، ونحسّ بأنّنا محصّنون وكأنّ شيئاً لن يمسّنا.

دفعت الباب الزجاجيّ. رفع رأسه عن صحيفته. رجل أربعينيّ، شعره كستنائيّ، وله صلعة دائريّة الشكل. كان يرتدي معطفاً بنيّاً فاتحاً.

وقفت أمامه.

- السيّد غِيلان على ما أظن؟

تأمّلني بعينين باردتين وكأنّه يقدّر الثمن الذي سيجعلني أدفعه لاستهتاري الظاهريّ.

- سنكون أفضل حالاً في آخر الصالة...

كان لصوته وقع معدنيّ أكثر منه على الهاتف. واقفاً في معطفه، بقامته المربوعة الجسيمة، وتلك الصلعة فوق ذلك الوجه القاسي، كان يوحي لي بلاعب كرة قدم سابق.

جلسنا إلى طاولة في عمق المقهى، واختار هو المقعد المكسوّ بقماش أحمر ملمّع. كنّا وحدنا في الصالة. باستثناء رجل يرتدي بذلة رسميّة، جالس إلى منضدة الشرب حيث تُباع سجائر. لكن بدا عليه أنّه يتجاهلنا.

كان جالسا متّكئاً إلى الطاولة، مبعداً مرفقيه أحدهما عن الآخر، وهو لا يزال يتفرّس فيّ بعينيه الباردتين، رافعاً ذقنه قليلاً.

- حسناً فعلتَ بحضورك إلى هنا... وإلّا لكان وضعك سيزداد ربّما تعقيداً...

كان يحاول إرغامي على خفض عينيّ. لكن لا، لم يفلح. بل قرّبت وجهي من وجهه، كأنّما تحدّياً له.

- حصل أمر خطير للغاية عصر أمس في نويّي... هل فهمت ما أعنيه؟

- لا.

- حقّاً؟ أنت فتى ذكيّ، ويجدر بك أن تكلّمني بمنتهى الصراحة...

لم أخفض عينيّ، وكان وجهه قريباً إلى حدّ كاد معه جبينانا يتلامسان. كانت أنفاسه تبعث رائحة مشروب باليانسون.

- أوّلاً، أنت قاصر... وخطيبتك تمارس الدعارة منذ بعض الوقت...

تلفّظ بتلك الكلمات بصوت رتيب، غير أنّه كان

يترصّد ردّ فعلي.

ابتسمت له جاهداً، ابتسامة عريضة، أشبه بتكشيرة على ما أعتقد.

- إنّها تتردّد إلى شقّة، الرقم 34 شارع دوسيه... أعرف جيّداً المكان وصاحبته... أعرف حتّى معظم الزبائن... أنت أيضاً على ما أفترض، أليس كذلك؟

تذكّرت الليلة السابقة، حين كنت أنتظر أمام المباني. عند طرف الشارع، جسر المترو الجوّيّ، وسور ثكنة دوبليكس الممتدّ إلى ما لا نهاية. رأيتها تخرج من أحد المباني وتتقدّم في اتّجاهي.

-أتصوّر أنك تعرف أيضاً زوج صديقتك؟

- كلّ هذه أمور لا تعنيني، سيّدي.

اتّخذت نبرة ساهمة، غافلة.

- بلى، بلى، هذا يعنيك حتماً. وسوف تشرح لي بالتفصيل ما حصل عصر أمس.

كانت الصحيفة مثنيّة في جيب معطفه. كنت قبل قليل طلبت من جيزيل أن تحضر لي صحيفة المساء ذاتها، لكنّها نسيت.

- لم يحصل شيء عصر أمس.

ابتعدت عنه حتّى لا أعود أشمّ رائحة اليانسون المنبعثة من أنفاسه. واتّكأت إلى ظهر المقعد.

- لا شيء؟ أنت تمزح...

جلس كاتفاً ذراعيه.

أمّا أنا، فلم يكن بوسعي تحويل نظري عن الصحيفة في جيبه. ربّما سيفرشها ويشير لي إلى صورة الرجل الذي رأيناه يدخل سيّارة أنسار، معلناً أنهم انتشلوا جثّته عائمة تحت جسر بوتو. لكنّني لم أكن آبه لمثل ذلك الاحتمال. لم يبدأ إحساس مبهم بالندم يساورني سوى بعد مضيّ وقت، في حوالى الثلاثين من العمر، عند استرجاع بعض الأحداث من الماضي، مثل بهلوان يشعر بدوار متأخّر بعدما يكون عبر فوق الهوّة على حبله.

- سوف تأتي معي عند أصدقاء. وأنصحك بإعطائنا بعض التوضيحات، وإلّا فقد تواجه متاعب خطيرة...

كانت نبرته قاطعة، وعيناه القاسيتان لا تزالان تحدّقان بي. أحسست بي أنزلق في فراغ، وقلت، ساعياً لاستجماع شجاعتي:

- لكن من تكون أنت بالضبط؟

- أنا صديق قريب للسيّد سامسون.

ماذا كان يعني بذلك؟ أنّه من الشرطة؟

- صديق قريب، ماذا يعني ذلك؟

أربكه سؤالي. لكنّه تدارك:

- يعني شخصاً قادراً على إرسالك حالاً إلى النظارة.

حصل عندها أمر غريب: لم أخفض نظري، وراح ذلك الرجل يفقد من ثقته. أخذ يذكّرني شيئاً فشيئاً بعشرات الأشخاص، أولئك الذين كان والدي يذهب لملاقاتهم في ردهات فنادق أو صالات مقاهٍ شبيهة بذلك المقهى. غالباً ما كنت أرافقه. كنت في الرابعة عشرة، لكنّني كنت أراقبهم جميعهم على ضوء مصابيح النيون. حتّى الأكثر أناقة بينهم، ذاك الذي يبدو للوهلة الأولى محترماً تماماً، كان مع الوقت يكشف بصورة محتومة خلف مظهره عن دجّال سوقيّ بائس.

- وأنت تودّ إذن التكفّل بتربيتي؟

بدا مرتبكاً.

- بعد وقت، ستتوقّف عن التّذاكي.

لكنّ الواقع أنّ الفرصة فاتته. وها هو يبتعد في الزمن. سوف ينضمّ إلى قافلة جميع الشخصيّات الثانويّة، كلّ المستلزمات العرَضيّة البائسة التي واكبت فترة من حياتي: غرابْلي، المرأة ذات الشعر الأشقر كالقشّ، «لا تومات»، الشقّة الفارغة من الأثاث، المعطف الكحليّ البالي وسط حشود المسافرين في محطّة ليون...

- إلى اللقاء، سيّدي.

وما هي إلاّ ثانية وصرت في الخارج. هناك، في الساحة الصغيرة، كانت هي تترصّدني. لوّحت لي بذراعها. كانت ركنت السيّارة في ظلّ كنيسة سان جرمان لوسيروا.

*

- خفت أن يعتقلك...

كانت يدها ترتجف. أدارت المفتاح عدّة مرّات قبل أن تتمكّن من تشغيل محرّك السيّارة لتقلع بها.

- لم يكن هناك أيّ داعٍ للخوف، قلت لها.

- كان في المكتب حين استجوبني الرجل الآخر. لكنّني كنت أعرفه من قبل... ألم يقل لك شيئاً عنّي؟

- لا، لا شيء.

كنّا نتقدّم في شارع ريفولي. وتملّكني من جديد إحساسٌ بالجذل. إن واصلنا طريقنا بمحاذاة تلك القناطر التي تظهر من بينها صفوف المصابيح تتلألأ على مدّ النظر، فسوف نصل إلى ساحة كبرى بمحاذاة البحر. من النافذة المفتوحة، كنت أتنشّق منذ ذلك الحين هواء بحريّاً.

هل تقسم لي بأنّه لم يفاتحك بأيّ شيء عنّي؟

- أقسم لك.

ما قاله لي ذلك الشبح لم يعد له أيّ أهميّة: سجن لا بتيت روكيت، والرقم 34 في شارع دوسيه، وذلك العصر في نويّي حين وقع «أمر خطير». كلّ ذلك بات بعيداً جدّاً... كنت قد قمت بوثبة في المستقبل.

- يجدر بنا هذه الليلة ألّا نبيت في الشقّة.

مهما ردّدْتُ لها أنّنا لم نكن في خطر على الإطلاق، بدت قلقة ومتوتّرة إلى حدّ أنّني قلت لها في النهاية:

- سنذهب أنّى شئتِ...

لكنّ قلبي كان يعتصر لرؤيتها أسيرة تلك الظلال وتلك الأحداث التي بدت لي حينئذ طيّ الماضي. خُيِّلَ

لي أنّني أسبح إلى عرض البحر، وأراها تتخبّط خلفي، مصارعةً التيّار.

*

عدنا إلى الشقّة على رصيف كونتي لأخذ حقيبتيها.
بقيت تنتظرني عند أسفل الدرج الصغير المؤدّي إلى الطابق الخامس.
رنّ الهاتف فيما كنت أفتح باب حجرة المهملات.
وقفَت مصعوقة، محدّقة فيّ.
- لا تُجِب.
هبطْتُ الأدراج حاملاً الحقيبتين ودخلت المكتب. كان الرنين لا يزال متواصلاً. رحت أبحث عن الهاتف متلمّساً المكتب.
- آلو...
الصمت.
- هل ما زلت في المقهى، غِيلان؟ سألته.
لم أتلقّ أيّ جواب. خُيِّل لي أنّني أسمع أنفاسه. تناولَتِ السمّاعة. لم أتمالك نفسي عن إلقاء نظرة إلى الجانب الآخر

من السين. هناك، كان المقهى مضاء. قلت:

- هل أنت على ما يرام، أيّها المعتوه؟

صوت أنفاس، من جديد. وكأنّه حفيف الريح بين أوراق الأشجار. أرادت أن أقفل الخطّ، وكانت تشدّ بيدها على السمّاعة، محاولةً انتزاعها منّي، من غير أن تفلح. أبقيتها لصق أذني. ذات مساء، في الساعة ذاتها، في المكان ذاته، في زمن الاحتلال، تلقّى والدي اتّصالاً هاتفيّاً مماثلاً. لا أحد كان يتكلّم. لعلّه كان رجلاً كالذي قابلته قبل قليل، شعره كستنائيّ، أصلع بعض الشيء، معطف بنّيّ فاتح، وكان ينتمي إلى جهاز بيرميّو المكلّف برصد اليهود المقيمين سرّاً.

خشخشة. ثمّ أُقفِل الخط.

- علينا أن نغادر حالاً، قالت لي.

حملَت بنفسها إحدى الحقيبتين، تلك الأخفّ وزناً، وعبرنا الردهة. وفيما كنّا نهمّ بالخروج، وضعْتُ الحقيبة الأخرى أرضاً:

- انتظريني، إنّني عائد...

تسلّقتُ الأدراج الصغيرة مسرعاً، وتناولت من غرفة

الطابق الخامس الكتب القليلة المتبقّية على الرفوف بين النافذتين، وبينها كتاب «إلى النّفوس الرقيقة».

وضعتها في كدسة على أحد شراشف السرير وعقدته حولها مثل صرّة. تلك الكتب كانت مصفوفة هناك قبل فترة من وصول والدي إلى الشقّة. كان المستأجر السابق، مؤلّف كتاب «الصيد بالكلاب السلوقيّة»، هو الذي نسيها هنا. بعضها كان يحمل على صفحة الغلاف اسم شخص غامض يدعى فرنسوا فيرنيه.

حين نزلتُ من جديدٍ حاملاً كيسي المهيّأ كيفما اتفّق، وجدتها تنتظرني على بسطة الدرج.

صفقْتُ الباب وخُيِّل لي أنّني أغادر الشقّة إلى الأبد، بسبب تلك الكتب التي كنت أحملها معي.

*

كنّا هذه المرّة تركْنا الكلب في السيّارة. عند رؤيتنا، أطلق نباحاً أشبه بعويل واحتفى بنا.

وضعنا الحقيبتين وصرّة الكتب في صندوق السيّارة.

- أين نذهب؟ سألتها.

- إلى الفندق الذي نزلتُ فيه.

فكّرت في حارسه الليليّ، فكّه المربّع، وشفتيه الضّامرتين، ونظرة الازدراء التي كان يرمقنا بها الليلة الماضية. لم أعد أخشاه.

ولا هي كذلك، لأنّها قالت لي:

- كان يجدر بنا أن نعطيه بعض المال، كان آنئذ سيغضّ الطرف.

التفتّ إليها.

- هل تحملين بعض المال حتّى نرحل إلى روما؟

- أجل. ادّخرت ثلاثين ألف فرنك.

إن أضفنا إليها المبلغ الذي دفعه لي ديلّافيرسانو، وما تقاضيناه من أنسار، كان لدينا معاً أكثر من أربعين ألف فرنك.

- أحمل نصف المال في حقيبة، وخبّأت الباقي في المنزل في سان لو لافوريه. عليّ أن أذهب غداً لجلبه.

لم أتجرّأ وأسألها عن مصدر ذلك المال. هل كانت تلك مدّخرات زوجها؟ أم ما كسبته في الرقم 35 في شارع دوسيه، في تلك الشقّة التي ألمح إليها الرجل قبل قليل؟

لكن لم يعد لكلّ ذلك أهميّة. ذلك كان الماضي. وفي روما، في مساء يوم ربيعيّ، سوف نبدأ بعيش حياتنا الحقيقيّة. سنكون عندها نسينا كلّ سنوات الحداثة تلك، وحتّى أسماء أهلنا.

كنّا نتبع أرصفة النهر. واجهة محطّة دورسيه[1] المطفأة بسقائفها الصدئة التي لم تعد تفضي إلى شيء. والفندق القائم في المبنى ذاته مع المحطّة. توقّفنا عند الضوء الأحمر، وكان بوسعي رؤية المدخل ومكتب الاستقبال.

قالت:

- هل تريد أن ننزل في غرفة هنا؟

في تلك الحالة، سنكون النزيلين الوحيدين في ذلك الفندق المتماهي من الخارج مع واجهة المحطّة المهجورة.

أحياناً أحلم أنّني معها، في وسط ردهة الاستقبال. الحارس الليليّ يرتدي بذلة رثّة، بذلة رئيس محطّة

(1) Gare d'Orsay محطّة قطارات سابقة وفندق، افتُتحا عام 1900 لاستضافة الوفود المتدفّقة الى المعرض العالميّ الذي نظّم في باريس. ومع حلول العام 1939، باتت أرصفة المحطّة غير مناسبة للقطارات التي أصبحت أطول من قبل، فأغلقت، فيما أغلق الفندق عام 1973. وتمّ تحويل المبنى لاحقاً إلى متحف أورسيه الذي افتتح عام 1986. كما أقيمت محطّة مترو في طوابقها تحت الأرض، هي محطّة «موزيه دورسيه» («متحف أورسيه»).

قطارات. هو أعطانا للتوّ مفتاحنا. لم يعد المصعد يعمل، ونتسلّق أدراجاً من الرخام. في الطابق الأوّل، نحاول البحث عن غرفتنا، من دون جدوى. نعبر قاعة الطعام الفسيحة الغارقة في العتمة، ونتيه على طول الأروقة. وفي نهاية المطاف، نصل إلى قاعة انتظار قديمة يضيؤها مصباحٌ عارٍ يتدلّى من السقف. نجلس على المقعد الوحيد المتبقّي. المحطّة أصبحت خارج الخدمة، لكن من يدري... قد يعبر القطار إلى روما بالخطأ، ويتوقّف بضع ثوان، حتّى نصعد في إحدى العربات.

*

ركنّا السيّارة عند زاوية جادّة سوفرين والشارع الضيّق حيث الفندق. حملتُ الحقيبتين، فيما حملت هي الصرّة. كان الكلب يجري أمامنا، بلا زمام.

لم يكن باب الفندق مغلقاً، كما في المرّة الأولى. كان الحارس الليليّ ذاته جالساً خلف مكتب الاستقبال. لم يتعرّف إلينا على الفور. رمق الصرّة المصنوعة من شرشف والتي كانت جيزيل تحملها والكلب بنظرة ارتياب.

- نريد غرفة، قالت جيزيل.

- لا نقبل إطلاقاً نزلاء لليلة واحدة، قال الحارس بنبرة باردة.

- إذن لخمسة عشر يوماً، قلت بصوت هادئ. وأدفع لك نقداً إن شئت.

أخرجت من جيب معطفي رزمة الأوراق الماليّة التي قبضتها من ديلّافيرسانو.

بدا مهتمّاً وقال:

- تدفعان عن الكلب نصف تعريفة.

في تلك اللحظة بالذات، تذكّرني. كان يحملق بي بنظرته الشبيهة بنظرة مدير لعبة قمار.

- أنت جئت من قبل، المساء الماضي... كنت شقيق الآنسة... لكن عليك أن تثبت لي ذلك...

دسست بضع أوراق ماليّة من فئة مائة فرنك في جيب سترته الأماميّة، فلانت نظرته.

- شكراً سيّدي.

التفت وسحب مفتاحاً من أحد الأدراج الصغيرة.

- الغرفة رقم ثلاثة لحضرتك ولحضرة شقيقتك...

صار يعاملنا بلياقة مهنيّة.

- إنّها في الطابق الأوّل.

مدّ لي المفتاح وانحنى صوبنا.

- لا تخطئا في الأمر... فالفندق لم يعد يشغل سوى الطابق الأوّل من المبنى. أمّا ما تبقّى، فشقق مفروشة.

ابتسم.

- بالطبع، هذا الأمر ليس مطابقاً تماماً للأصول... لكنّ ثمّة أمور كثيرة في الحياة لا تراعي الأصول، أليس كذلك؟

تناولْتُ المفتاح، مجرّد مفتاح بسيط من المعدن الأبيض، لم يكن يوحي بأنّه مفتاح غرفة في فندق.

- أمّا بالنسبة لحساب الغرفة، فلن يكون بوسعي للأسف أن أحرّر لكما فاتورة.

- لا عليك، أجبته. هذا أفضل بكثير.

صعدنا الأدراج المكسوّة ببساط أحمر رثّ.

صفّان من الأبواب على جانبَي الرواق. وعلى كلّ منها، رقم مدوّن بالقلم.

دخلنا الغرفة رقم 3. كانت فسيحة وعالية السقف. وفيها واجهة زجاجيّة تطلّ على الشارع. السرير الواسع مكسوّ بشراشف زرقاء سماويّة وغطاء ذي مربّعات إسكتلنديّة. وكانت سلالم صغيرة من الخشب الأبيض تصعد إلى شرفة داخليّة. تمدّد الكلب أرضاً، عند أسفل السرير.

- يمكننا البقاء هنا حتّى رحيلنا إلى روما، اقترحَتْ جيزيل.

أجل، بالطبع. وفي انتظار ذلك الرحيل، لن نغادر الحيّ، على غرار المسافرين في قاعة الترانزيت في مطار ما، قبل الصعود إلى طائرتهم. لا بل لن نغادر تلك الغرفة، ولا ذلك السرير. كنت أتصوّر الرجل ذا المعطف البنّيّ الفاتح الذي قابلته قبل قليل، يدقّ على باب الشقّة على رصيف كونتي في الصباح الباكر، ليقتادنا مثلما فعل قبل عشرين عاماً مع والدي، وكما سيفعل إلى أبد الآبدين. لكنّه لن يكون بوسعه أبداً أن يقبض علينا.

- فيمَ تفكّر؟ سألتني.

- روما.

أطفأَتِ المصباح على المنضدة الليليّة. كنّا ممدّدين في السرير من غير أن نغلق ستائر الواجهة الزجاجيّة الواسعة. كانت تردني أصداءُ أصواتٍ واصطفاق أبواب سيّارات قادمة من المرآب المقابل. وكانت لافتته الكهربائيّة تلقي انعكاساتها علينا. بعد قليل، خيّم الصمت. أحسست بشفتيها على صدغي وفي جوف أذني. سألتني في همس إن كنت أحبّها.

في اليوم التالي، نهضنا قرابة الساعة العاشرة. لم نجد أحداً عند مكتب الاستقبال في الفندق.

تناولنا الفطور في شارع لاوس، في مقهى يحمل اسم ذلك الشارع.

قالت لي إنّها ستذهب في الحال لإحضار باقي المال من سان لو لافوريه، وإنّها تأمل أن «يجري الأمر على ما يرام». أجل، فهي قد تلقى زوجها أو آخرين يقطنون المنزل. لكن في الحقيقة، ما همّها؟ فهي لم تعد ملزمة بتبرير نفسها لأيٍّ كان.

عرضت عليها أن أرافقها، لكنّها أجابت أنّ من الأفضل أن تذهب وحيدة.

- سأتّصل بك في الساعة الواحدة إن كنت بحاجة إليك.

عدنا إلى الفندق لكي تدوّن رقم الهاتف. لم يكن

الحارس حضر بعد، لكنّنا وجدنا على منضدة الاستقبال رزمة من البطاقات الرمليّة اللّون، طُبِع عليها: فندق-نزل سيغور للشقق المفروشة، الرقم 7 مكرّر شارع لا كافالري (الدائرة الخامسة عشرة)، سوفرين 75-55. دسّت واحدة في جيب معطفها الواقي من المطر.

مشينا حتّى السيّارة، وكانت تمسك بذراعي. كانت عازمة على اصطحاب الكلب معها. جلسَت خلف المقود، وهو على المقعد الخلفيّ. وجدتُ حجّة حتّى لا أفارقها على الفور. فهل يمكنها أن تقلّني حتّى بائع صحف؟

سلكت جادّة سوفرين، متوجّهة نحو السين. وتوقّفت عند أوّل بائع صحف صادفته.

- إلى اللّقاء بعد قليل.

انحنت من النافذة المفتوحة ولوّحت لي بيدها.

*

دسستُ الصحيفة في جيبي. انعطفت يساراً في أوّل شارع، تبعته ووصلت إلى ساحة في وسطها حديقة فسيحة وكشك للعروض الموسيقيّة.

جلست على أحد المقاعد قرب الكشك لقراءة الصحيفة. أمامي، واجهة ثكنة دوبليكس.

شمس. وسماء صافية لا تعترضها غيمة. وعلى المقعد المجاور لمقعدي، امرأة سمراء في حوالى الثلاثين من العمر، تراقب صبيّاً صغيراً على درّاجة.

فاجأني وقع حوافر راح يقترب. كانت مجموعة من الخيّالة باللباس العسكريّ تدخل الثكنة على صهوات أحصنة. تذكّرت أنّني في صبيحات الأحد في طفولتي، كنت أسمع وقع الحوافر ذاته عند عبور موكب الحرس الجمهوريّ على رصيف النهر.

لم أعثر في صفحة الحوادث على صورة الرجل الذي أرغموه على الصعود في سيّارتهم بعد ظهر الأحد. ولا ذكر إطلاقاً لأنسار، أو جاك دو بافيير، أو مارتين غول.

خطر لي أنّنا في تلك الليلة، كنّا على مقربة من هنا، وقرّرت أن أمشي حتّى شارع دوسيه، من غير أن أدري أين يقع تحديداً. لكن يكفي أن أمشي بمحاذاة جدار الثكنة.

عرفت المبنى رقم 34 حين رأيته. أجل، هناك تحديداً انتظرتها. كان جسر المترو الجوّيّ إلى اليسار يسدّ أفق

الشارع. في أيّ طابق يا ترى هي الشقّة؟

سلكت الطريق ذاتها من جديد، وألفيتني من جديد في الساحة حيث الحديقة العامّة، أمام الثكنة.

عدت إلى جادّة سوفرين، وشارع الفندق الضيّق.

كان مكتب الاستقبال لا يزال فارغاً. والهاتف موضوع على الحافّة الخشبيّة، تحت خزانة الأدراج الصغيرة. كانت الساعة تقارب الواحدة. أسندت مرفقيّ على المكتب. الساعة الواحدة. الواحدة والربع. ولم يرنّ الهاتف إطلاقاً. رفعت السمّاعة لأتثبّت من أنّ الجهاز يعمل فعلاً، فسمعت طنين الخطّ.

كانت حدّدت لي موعداً قرابة الساعة الثانية، في المقهى في شارع لاوس. لم تكن لديّ أيّة رغبة في الصعود إلى الغرفة. خرجت وتبعت جادّة سوفرين، لكن هذه المرّة في الاتّجاه المعاكس. كانت الجادّة أكثر هدوءاً في تلك الجهة. وعلى طول الرصيف المقابل، المباني القديمة للمدرسة العسكريّة. وصفّا أشجار الدلب. لن نرى أوراقها في الربيع التالي، لأنّنا سوف نكون في روما.

كلّما مشيت، بدا لي أكثر وأكثر أنّني صرت منذ ذلك

الحين في مدينة غريبة، وأنّني أتحوّل إلى شخص آخر. كلّ ما عشته في طفولتي وخلال السنوات القليلة التي تلتها، حتّى لقائي بجيزيل، كلّ ذلك كان ينفصل عنّي بهدوء، مثل أشلاء تفارقني، ويذوب، إلى حدٍّ أنّني رحت بين الحين والآخر أبذل مجهوداً أخيراً لأستبقي منه بعض الفتات قبل أن يتبخّر: سنوات المدرسة، خيال والدي في معطفه الكحليّ، والدتي، غرائبلي، انعكاسات أضواء الزورق النهريّ على سقف الغرفة...

في الساعة الثانية إلّا عشر دقائق، وصلت أمام مقهى شارع لاوس. لم تكن وصلتْ بعد. أردت أن اشتري لها باقة من الورد من محلّ الأزهار في الجهة المقابلة، لكنّني لم أكن أحمل نقوداً. مشيت حتّى الفندق. حين دخلت، كان الحارس الليليّ جالساً خلف مكتب الاستقبال.

حملق فيّ. واحتقن وجهه.

- سيّدي...

كان متلعثماً، لا يجد الكلمات المناسبة، لكنّني فهمت حتّى قبل أن أسمعه. صديقتك. حادث. بعد جسر سورين بقليل. عثروا على بطاقة الفندق في جيب معطفها

واتّصلوا بنا هنا.

خرجتُ من غير أن أفكّر. في الخارج، كان كلّ ما هنالك رقيقاً، وصافياً، وهادئاً، مثل سماء يناير حين تكون زرقاء.

نبذة عن المؤلّف:

ولد باتريك موديانو في بلدة بولوني-بيّانكور قرب باريس في 30 يوليو 1945 لأمٍ ممثّلة من أصل فلامنديّ، وأب يهوديّ فرنسيّ من أصل إيطاليّ شكّل غموض سيرته أحد أهمّ عناصر كتابات ابنه ومصادر إلهامه. برع موديانو منذ رواياته الأولى في تصوير الأفق الاجتماعيّ والسياسيّ المأزوم في فرنسا في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، وفي تحويل التجربة التاريخيّة إلى مأساة وجوديّة ضاغطة يعيشها أفراد محرومون من الإرث، ويفتقرون إلى أدنى المرتكزات، يحدوهم أملٌ جارفٌ في تأسيس الذّات وتحقيق ما يكفي من الوضوح لإعادة ابتكار الحياة. تُوّج عمله بجوائز عديدة منها جائزة غونكور للرواية في 1978، وجائزة نوبل للآداب في 2014. له أكثر من ثلاثين رواية ومجموعة قصصيّة، وتصدر عن مشروع «كلمة» في أبو ظبي ترجمة ستّ من رواياته إلى العربيّة.

نبذة عن المترجمة:

دانيال صالح شاعرة لبنانية، لها باللغة الفرنسية مجموعتان شعريّتان بعنوان «حجارة الليل».- باريس 1984، و«الخطوات النائمة».- بيروت 1985. ترجمت في الصحف والدوريّات اللبنانيّة والعربيّة عشرات القصص القصيرة والقصائد لجاك بريفير وبول إلوار وجورج شحادة وتشيزاري بافيزي وهنري ميشو ولو كليزيو وغيرهم، وساهمت في ترجمة أشعارِ لأنسي الحاج إلى الفرنسيّة، وأعدّت وترجمت بالاشتراك مع شارل شهوان أنطولوجيا للقصّة القصيرة بعنوان «ثلاثون قصّة من الكوكب». من ترجماتها إلى العربيّة «منصب شاغر» للبريطانية ج. ك. رولينغ، و«بوتشان» للياباني ناتسومي سوسيكي، و«فيضان ونصوص أخرى» لإميل زولا، والكتابان الأخيران صدرا عن مشروع «كلمة» للترجمة.

سيرُكَ يمرّ

في ساحة شاتليه، أرادت الصعود في المترو. كانت ساعة الزحمة. وقفنا محشورين قرب البوّابات. وعند كلّ محطّة، كان الركّاب الذين ينزلون يدفعوننا على الرصيف، ثمّ نعود ونصعد في الحافلة مع الركّاب الجدد. كانت تسند رأسها إلى كتفي، وقالت لي مبتسمة: «لا أحد يمكنه أن يعثر علينا وسط هذا الحشد».

في محطّة غار دو نور، جرفنا سيل الركاب المتّجه إلى قطارات الضواحي. عبرنا ردهة المحطّة، وفي مستودع الأمانات الآليّ، فتحَتْ خزانة وأخرجت منها حقيبة جلديّة سوداء.

كنت أحمل الحقيبة التي كان وزنها ثقيلاً. قلت لنفسي إنّ ما تحتوي عليه لم يكن مجرّد ملابس.

السعر 40 درهماً







